# قشعريرة

# قشعريرة

## مجموعة قصصية

إيهاب فاروق

# قشعريرة

اسم الكاتب: إيهاب فاروق
تدقيق لغوي: فريق المكتبة العربية
تصميم الغلاف: فارس حسن
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولى – يناير ٢٠١٩ م
رقم الإيداع: 2019 / 2147
الترقيم الدولي: 2 – 55 – 6610 – 977 – 978

Arabiclibrary2017@gmail.com
Facebook.com/arabiclibrary2017

01030365801

جميع الحقوق محفوظة

عزيزي ..

إذا وصلتك هذه الأقاصيص

فاعلم أن أبطالها يحيطون بك

فترفق بهم ! !

إيهاب فاروق

(١)

# قشعريرة♣

لا أدري ما الذي أتى بي إلى محطة القطار مبكرًا هذا الصباح، رغم أن الانتظار بطبعه يقتلني، لكنه السهاد؛ ذلك اللعين الذي أوشك أن يخنقني، إنما ماذا أفعل والانتظار قد صار يتربص بي هنا وهناك، أنتظر الليل التماسًا للهدوء، وأنتظر الصباح فرارًا من الوحشة، وأنتظر الذهاب إلى عملي لأتقلى على نيران الساعات حتى الانصراف، انتظار يقبع في داخله انتظار، وجحيم لا يطفئه إلا شراب من حميم، ربما تكون متعتي اليوم في مشاهدة القطارات وهي تمر من أمامي، وتصفر، فتحشو بصفاراتها تلك القاسية أعماق آذاني !!

ملل ووحشة ورتابة، ووحدة لا تبدو أن لها نهاية، ليت عقارب الساعة تلك المعلقة على أرصفة المحطة أن تلدغني، لتنتهي معها هذه المأساة، قسوة الحياة لم تعد في سرعة فقدان الأشياء، بل في ديمومة الانتظار دون بلوغها، كل شيء صار متشابهًا وملتبسًا، حتى القطارات ذاتها تتشابه؛ طالما لم يأت بعد ذلك القطار الذي تريده .

تأخر كثيرًا ذلك القطار بينما أتابع المسافرين وهم يهرعون، أغلبهم فرحون بالسفر وإن بدوا مرهقين، تبدو هذه المسافرة سعيدة جدا وهي تستقبل قطارها الفاخر، لا تحمل للدنيا همًّا؛ مقعدها الوثير محجوز لها في

---

♣ في سبتمبر ٢٠١٨

العربة المكيفة، حتى حقيبتها الخفيفة تلك قد تطوع أحدهم بحملها، للجمال سطوة فرعون يقبض بصولجان من ذهب، وإن شحت يداه عند دفع البقشيش !!

وهذه الأخرى تجري وتلهث لتسابق عجلات قطارها الذي صفر كثيرًا وأوشك أن يغادر دونها، تخشى أن يضيع أملها في ركوب ذلك القشاش، فتتعلق فيه ويكاد أن يسحلها، وأنت يا قطاري العزيز أما آن لك أن تأتي ولو حتى لتسحلني ؟!

لم يعد الزواج كما كانوا يقولون قديمًا؛ هو حلم كل فتاة، تخلينا عنه لأسباب اخترعناها نحن أيضًا، خطيئة اللهفة والاشتهاء تغلفها متعة الرفض والإباء، صرنا نسير بأقنعة ترسم البراءة،لكن تفضحنا العيون، وتبقى لذة السر هي التي تشفي غليل شهوات لا ترتوي، تحولنا إلى مجرد صناديق من زجاج فاضح،تعرض من خلفه كل شيء، وكلما غَلت البضاعة عزَّ المشترون، هل جربت يومًا إحساس أن تكون بضاعة تأكلها العيون، ويعرضها صاحبها مزدانة بإضاءة من كل الزوايا، يحرص قطعًا أن يداري العيوب، لكن لا تمتد إليها الأيادي العاجزة، حتى إذا ما فار التنور وبلغ السيل الزبى،انكسر الزجاج وفقدنا كل شيء !!

إننا نكذب قطعًا، حتى على أنفسنا، نخدع الجميع بالترفع والتعفف، بينما نداء الطبيعة سوط يهوي ويلهب ظهورنا، فيرن صداه في الغابة المتوحشة ويغلف الآفاق، ومن يحجب ضوء الشمس لن يمنع وصول اللهيب، تظل أبواب الجحيم مغلقة حتى يقترب منها من يظن أنه قادر على اقتباس

بعض الدفء، لكن أبواب الجحيم لا تعرف المواربة ومن خلفها تدق اللفحات.

هل من لمسة دافئة تحنو علي ولو قليلًا. لمسة واحدة تقتل كل ذلك الملل المُحبِط. ألست مثل تلك الفتاة التي أراها تقترب وهي تتأبط ذراعًا، أى ذراع لا يهم!! .. تُرى هل تزوجته أم أنها تنازلت كثيرًا ؟!

اقتربا مني واختارا الجلوس إلى جواري، تتعلق في ذراعه تعلق الغريق في قشة، قد تغرق معها إلى القاع في استسلام، عيناها الجريئتان لا تخشيان كل تلك العيون المتلصصة من حولهما، لا يعرفان العيب أو المحظور أو حتى الحرام، كم أشتاق إلى ذلك التعلق المستفز للجميع، ولو بتلاصق الأكتاف والأفخاذ. تُرى ما الذي يهمس به في أذنها كل هنيهة، لابد أنه همسٌ لذيذ جدا ويستهويها،فيجعلها تضحك إلى هذا الحد، أليس لي نصيب حتى في الابتسام ؟!!

تسللت بأذني قليلًا عليَّ أسترق السمع، لكن دون جدوى، أحاول عبثًا أن أصطنع اللامبالاة وعدم الاهتمام، وأجبر قسماتي لترسم على وجهي علامات التأفف والامتعاض، لكني ظللت سيئة في الرسم على مر الأعوام، فصرت بعلامات انبهاري الملونة المزركشة كوجه مهرج قديم، اعتاد إضحاك الناس بينما يداري عبثًا في البكاء !!

هل صرتُ من الماضي حقًا، أمتطي صهوة أفكارٍ يسحقها قطار الزمن فوق قضبانه، أم أنني أدمنت السر وأفعاله، تلك التي لا أجرؤ على إتيانها في العلن، يمر بنا العمر ونحن نتشبث بتلك الأفكار، عادات .. تقاليد .. أعراف ..

أموال تلقى هنا وهناك، عبث في عبث وصنعنا منه دينًا، وصرنا نؤمن به، بل ونجاهد من أجله، فكثر الملحدون وألقوا تلك الأقنعة، لم تكن إلا مجرد أغطية نتخفى خلفها بأفعالنا الآثمة .

أي دين هذا الذي اخترعناه لنتشبث به، فنطلب ممن يريد الزواج أن يأت لنا بالجنة ونعيمها على الأرض، ويزينها لنا وكأننا الحور العين، رغم أن الجنة تنتظرنا في السماء، ومن ذا الذي يمتلك أنهار اللبن والعسل فيسيلها هكذا كيلا يكتوي بنيران الجحيم، يقولون عن الزواج أنه دخول للدنيا، لقد أتينا إلى هذه الدنيا عرايا، ونستر فقط سوأتنا، فلماذا لا ندخل فيها عرايا ؟!! .. لكنا نصر على أن نكتسي من الرأس إلى أخمص، ثم لا نكترث إذاانكشفت السوءات !!

مازال يهمس في أذنها، تبدو غائبة معه عن دنيا الناس، صخب المحطة وصفير القطارات لا يمنع تعاقب النظرات وهجومها عليهما، أكاد أجزم أن كل العيون في المحطة تتجه نحوهما، ياالسعادتها تلك الفتاة وإن تحدت واستعدت الجميع، تحفزت للنظرات المتلصصة كنمرة تحمي صيدها، فتركهما الجميع وشأنهما، وأصبحت أنا بجلستي بجوارهما هي الشيء الأغرب في المشهد كله .

تأخر قطاري كثيرًا هذه المرة، ليته لا يأتي حتى أتابع هذا المشهد حتى نهايته .

التف بذراعه حول كتفها، ثم ازدادت جرأته فجذبها نحوه، فمالت برأسها عليه لتستقر على كتفه، لم تشعره بأدنى مقاومة، اصطدمت كتفه الأخرى خلسة بكتفي، أحسست بقشعريرة تسري في كل جسمي، كم هي حلوة تلك القشعريرة، هل أشاركها ذلك الشعور، ربما يرضى هو بتلك المشاركة المقيتة، لكن تلك النمرة لن ترضى بالتأكيد، ولو زادتها المشاركة لهيبًا، نحن النساء قد نقبل بالجحيم عن المشاركة في الجنة !!

انتظرت اعتذاره عن اصطدام كتفه بكتفي، لكنه لم يهتم، ربما لم يشعر بوجودي ذاته، هل سأبقى هكذا بلا أحد يهتم بي، يخشى حتى من الهواء أن يقترب مني، رأيته يفعل ذلك معها، وترك لي الهواء يعبث بي أنا، مازال المقعد الذي على جانبي الآخر خاليًا، هل أنا على موعد مع شيء ما.

يبدو أن أحدهم قد تقدم لي، عفوًا تقدم نحوي ليجلس بجواري، مرَّ كطيف سريع لم أتبين ملامحه، لكنه يبدو أكثر وسامة من رفيق غريمتي، لن أركز في النظر أكثر كي لا تفضحني نظراتي، مازلت كالجائعة تحلم بكسرة خبز مقدد، بينما تتظاهر بالإصرار على التهام عيش السرايا، ليس في عائلتنا ما يغري بالنسب، ولست جميلة لحد الإبهار،لترتمي تحت أقدامي همم الرجال، لكن يجب أن أرى في نفسي هكذا وإن ظللت عانسًا للأبد، صار عرفًا وكثير من البنات وصلن إلى تلك القناعة، ولو تزوجن شيوخًا طاعنين في السن،أو أن يصرن زوجات مع أخريات، صار الزواج لمن يستطيع دفع فاتورة الحساب،

أما الشهوة فيبلغن أقصاها في السر بلا حساب، هل سأظل جائعة هكذا إلى الأبد ؟!

أشتاق إلى كلمة حلوة، إلى لمسة حانية دافئة، ولو في حر هذا الصيف اللافح، أتوق إلى تلك القشعريرة التي أحسستها في ثانية واحدة، ولو بدون قصد، أحتاج إلى جرأة هذه الفتاة التي تجلس إلى جواره، ترى كم شعرت بتلك القشعريرة الحلوة وكررتها مرات ومرات، تُرى .. لكن ..

يبدو أن جاري الجديد قد تحرك، أرسل لي قشعريرة أخرى، لكن لا .. لا يمكن أن أتحول هكذا، فتاة تبحث عن أي متعة مع أي رجل دون تمييز، ربما كانت مجرد اختبار منه ليستكشف مدى استجابتي، مازالت ترن في أذني ضحكات تلك الفتاة، تُرى ماذا يقول لها الآن، هل سيهمس هذا الآخر في أذني فأضحك مثلها، صار لي وقت طويل لم أضحك فيه، إلا على تلك النكات الخارجة السمجة التي ترويها زميلاتي المتزوجات في العمل، لست أدري ما الذي يدفع أغلبهن أن يقتلن أوقاتهن ويقتلنني برواية كل خبراتهن في الفراش، ألا توجد لمسات دافئة تقشعر لها أبدانهن بعد الزواج، فصرن جميعًا بكل ذلك البرود؟!

دوَّت صفارة القطار التوربيني السريع، هذا الذي لا يقف أبدًا في تلك المحطة، لكنها إشارة لي على كل حال، فقد أوشك قطاري أن يصل، يخزنوه دومًا من أجل مرور ذلك المارد العاصف، لطالما حلمتُ بالركوب فيه، لكنه الحلم الذي يزول في لمحة بصر، من العبث انتظار قطار لا يقف في محطتك

أساسًا، إلا متعطلًا أو مصطدمًا بقطار آخر، يبدو أنني أصبحت مثله تمامًا، أنطلق بعمري ولا أتوقف في أي محطة، بينما الاشتياق ينتظرني في كل المحطات، حتى تلك اللمسة الدافئة من ذلك الكتف الحاني الذي صار يصطدم بكتفي مرات، ربما لن يقف هو الآخر في محطتي أبدًا، أكاد أجزم أنه يقصد تلك الصدمات، القشعريرة تسري في بدني ككهرباء لا تنقطع أبدًا.

لم أعد أشعر بغريمتي النمرة الشرسة وبما يفعله معها رفيقها، غبت أنا الأخرى مع رفيقي عن دنيا الناس، أكاد أسمع همساته تستقر في أذني في سكون، همهماته تلك اللذيذة تسكرني، وإن لم أتبينها، ليس مهمًا من الذي يقولها،أو ماذا يقول، إنما الأهم أنني قد صرت أسمعها، في استبيان المجهول لذة لا تعدلها إلا أن يظل المجهول مجهولًا كما هو، فالحقيقة قد تكون فاضحة، وقد لا أمتلك الجرأة التي تتمتع بها تلك الفتاة لأضحك فقط من دغدغات المشاعر، كل شيء سيأتي في حينه على كل حال .

دوَّت صفارة قطار آخر، أتت مرهقة مقطوعة الحيل، دخل القطار خلفها يحجل إلى الرصيف بأدخنته السوداء، يبدو أنه قطاري اللعين وقد وصل أخيرًا، لا .. لا يمكن أن تنتهي القصة بسرعة هكذا، ألم يكن من الأوجب أن تتأخر قليلًا أيها القشاش السمج، مازال حوار الأكتاف يتمطى وتعيقه حواجز الخجل، يبدو أن جاري لا يتمتع بنفس جرأة الفتى الآخر، عساه أن ينطق حرفًا واحدًا مفهومًا لأستكمل له ما تبقى من حروف، انطق يا هذا فقد

أوشك القطار على مغادرة المحطة، هؤلاء الرجال لا يحسنون تقدير الأمور، هل صار علي أن ألجأ لحيلة من حيل النساء ؟!

هممت بالانصراف وأنا أتلفت خلفي، عساه أن يتبعني، أو أن يركب القطار ورائي، ظللت أقدم رجلًا وأؤخر الأخرى، وأستدير مرات ومرات،أنظر خلفي بلهفة مشتاقة جائعة للحنو، أدقق النظر علَّني أجده وهو يتبعني، لكني لم أكن أجد أحدًا، ولا حتى طيفًا لخيالي المتأجج بتلك القشعريرة الحلوة، مازال صداها يدغدغ في أضلعي، فيدق ويتراقص لها قلبي، رقصة السعادة بالوصول تلاحقها رجفة الخوف من الفقدان، فلم أجد بُدًّا من العودة للجلوس على الرصيف مرة أخرى .

كان مقعده خاليًا ولا يجلس فيه، أخشى من مصير غائب قد تطويه الذكريات ولم أتبين بعد ملامحه، تظاهرت بنسيان شيء ما وعاودت الجلوس، عساه أن يعود مرة أخرى، تحسست مقعدي ومقعده، ضحكات الفتاة اللعينة تطاردني مع دوي صفارات قطاري وهو يوشك أن يغادر المحطة، وجدت مقعدي لم يزل ساخنًا كأن لم أتركه، أما مقعده فكان باردًا، باردًا جدا، وكأن لم يكن يجلس عليه أحد !!

يبدو أنه قد فاتني القطار!!

تمت

(٢)

# الصندوق المعدني♣

لم يكن الأمر مجرد اختيار منا، بل ظل هو الإجبار بعينه، أن نجلس مقرفصين هكذا وفي هذا الصندوق المعدني الذي وضعوه فوق سيارة ربع نقل، وقد أعد خصيصًا لنقل الركاب، لكن من نوعية القرود التي رفضت التطور واستمرأت القرفصة وهي تقزقز الموز فوق فروع الشجر، ثم تصرخ فرحا وهي تلقي بقشوره بمنتهى العقل فوق رءوس البلهاء من البشر.

لكن ظلت هذه هي وسيلة المواصلات الوحيدة عبر ذلك الطريق الضيق، لتخطر عليه السيارات بعد أن تهتز هنا وتتمايل هناك لتصل إلى المدينة متعبة لاهثة، ولا يلاحق لهاثها ذلك إلا لهاث ركابها من هبد المطبات، فيخرج الراكب من الصندوق معصورًا أو مُفعصًا، وربما محمولًا ومقلوبًا من رجليه كما الخارج من بطن أمه، فيصفق رفقاؤه لخروجه سالمًا بعد عناء، وفرحا كذلك فقد نقص من الصندوق واحد ليزيد على الأرض، بعد أن قطعوا له حبل الخلاص !!

ومع انقطاع الأمل في زوال زغدات الركاب من حولك عن اليمين وعن الشمال، فقد احتل مكان ذلك الراكب "المزلوط" راكب آخر من أولئك المتعلقين بالحديدة في الخارج، ليدخل ويجلس منشرحًا ويبذر بذرته في باطن الصندوق لتنمو من بعد الشعبطة، ويملص بأردافه المكتنزة ما بين الأفخاذ

---

♣ في مارس ٢٠١٨

المتلاصقة لتستقر تركوته وتأخذ مكانها بجوار التركوات المتحفزة، وتستريح في جلستها فتنطلق الغازات .

إلا أن كل هذا لم يمنع ذلك الفتى الجالس في الركن الأخير، والصامت تمامًا منذ أن بدأنا في دخول الصندوق، فلا هو يشرئب بناظريه محاولا رؤية ما تبقى من المروج الخضراء التي التهمتها الكتل الخرسانية المتراصة، ولا تلك المعركة الضروس الدائرة بين كلاب الغيطان وأصحاب الأراضي، فلم تعد تجد الكلاب غيطانًا تختبيء فيها لتنبح في الليل والنهار على كل غريب، لكن عينا الفتى قد تركزتا فقط في شاشة هاتفه النقال الكبيرة، والابتسامة تعلو وجهه ما بين لحظة وأخرى، ثم يلوح بأصبعه نحوها دائما وبصورة مستفزة !!

"عشر قضايا ولا ندري لماذا"

هكذا صرخت تلك السيدة المتشحة بالسواد، بعد أن لاذت كثيًرا بصمتها منذ أن ركبت معنا بعد أول محطة، لم يجد أحدهم بُدًّا من ترك مكانه المحشور فيه حشرًا لها، ليتعلق هو الآخر بالحديدة، ولم يجد الجالسون حولها بُدًّا كذلك من مطارحتها الصراخ ..

عشر قضايا لماذا ؟!! .. مخالفات بناء وسرقة ماء وكهرباء، كنا نسكن في عشة سقفها من الصفيح وتغمرها المياه كل شتاء، كل ما كنت أريده هو سقف حاكم أنام تحته أنا وأولادي، الكل كان يبني حولنا ولم يخالفهم أحد، الولد الكبير هو الذي يسعى ليطعمنا، لم يكن من الحكمة أن أتركه هو ليسجن وأخوته صغار يحتاجون من يطعمهم، أزالوا البناء بالجرافة وأجبروني على دفع الثمن، ظلت باقي البيوت منتصبة حولي وجاراتي اللعينات

تخرجن لي ألسنتهن في شماتة، مع كلمات مكررة ومصطنعة من الأسى، صار لهن أسقف ولم يعد لي، أخشى أن تكون غرفة سجني هي الأخرى بلا سقف !!

"هوني عليك يا حاجة فالحكومة تفعل ما تشاء"

"تجني دومًا علينا، ثم تحملنا نحن تكاليف الجناية"

"لماذا لم تحرقي العشة لتستصدري إذنًا بعدها بالإصلاح وإعادة البناء"

"هكذا الحكومة دومًا تحب من يلتف عليها كثعبان"

نبحت الكلاب نباحات متقطعة، يبدو أن السيارة قد اخترقت منطقة نفوذ لها، ثم أخرج الفتى الصامت لسانه لشاشة الهاتف، مع ابتسامة عريضة !!

توقفت السيارة رغم نباح الكلاب، رأينا شبحًا يتلكأ في المسير إلينا من بعيد، سجادة متحركة تخفي تحتها امرأة دقيقة القسمات، تكاد السجادة أن تدقها دقها في أوحال الطريق .

"ساعدوني يا أسيادنا"

تلقف راكبان السجادة من فوق رأسها ووضعوها بين أرجلنا المقرفصة، ثم وضعوا المرأة التي بدت كهرة خارجة من الماء بعد معركة فوق سجادتها، فازددنا انكماشا وألمًا ..

"بكم هذه السجادة يا حاجة ؟"

"ليست للبيع يا ابني .. هي للغسيل"

سجنوه في قضية نفقة وتبديد، أنا التي زوجته البنت، لم أكن أريد شحطتها مع أولئك الصبيان الصغار، فوقعنا في شر أعمالنا، ما أن تزوج

البنت حتى احترقت طليقته من الغيظ، قالت أن السجن أولى به من أحضان ابنتي، وضع بذرته فيها ثم عادت إلي مرة أخرى بهمها وبطنها المنتفخة، لأحملها ورضيعتها وأنا التي أريد من يحملني، تجاوزت الستين وأشاروا عليَّ بالزواج، وجدت غسيل السجاد أهون، خمسون جنيهًا في الواحدة لا تكفي، لكني قد أظفر بعباءة أو طرحة هدية من صاحبة السجادة، ونأكل من بيتهم كذلك اللحم في العيد !!

"كان الزواج لك أفضل يا حاجة"

"يا خويا أهو كله هبد، هناخد زمنا وزمن غيرنا"

عادت الكلاب للنباح مرة أخرى، لكن باستمرارهذه المرة، فانتبه جميع الركاب في الصندوق إلا ذلك الفتى الصامت، فقد ظل يبتسم ويبتسم موجهًا نظراته لشاشة هاتفه !!

تجاوزت السيارة منتصف الطريق تقريبا، وأرجلنا كادت أن تتفسخ من جلسة القرفصاء هذه، على تلك المقاعد المنخفضة، نتبارى في تقمص دور القادر على التحمل والمستهين بالألم، مع نظرات من السخرية على الآخرين ومن ركبهم هذه الخرعة، التي لم تتحمل نصف ساعة من القرفصة والتيبس .

لكن لكل قدرة نهاية مهما بلغت درجة احتمالها، خصوصا مع اختلاس نظراتنا للسائق الذي ظل يبرطع على كرسي وحده في كابينة القيادة، وبجواره راكبتين انتقاهما بإتقان ذئب من الموقف، وينتهز الفرصة كل دقيقة لينقل السرعات محتكًا بفخذ مجاورته، فلا تفتأ هي إلا أن تعاتبه بكتفها، أما

رفيقتها فقد انشغلت بإحصاء ما تبقى معها من جنيهات بعد أن وفرت أجرة التوصيلة، فتداهمهم الطرقات على زجاج النافذة من الصندوق الخلفي، لتوقظ كلًا منهم من نشوته المختلسة ..

"بسرعة شوية يا أسطى .. ورانا مصالح"

"لولا الاحتياج ما ركبت مع هذا السائق أبدًا"

قالها المتكوم الآخر في الركن، بعد أن سحب نظراته من خلف زجاج الكابينة، لولا سرقة الموتوسيكل لما اضطررت للركوب مع هؤلاء الذين جعلونا ذوي قرون على آخر الزمن، ذهبت لترخيصه منذ أسبوع، قدته لسنوات دون رخصة ولم يسألني عنها أحد، كل الطرق التي أسير فيها لا تعرفها الكمائن، ومع ذلك أردت الاستقامة مع نهايات العمر، دخت السبع دوخات حتى قبلوا مني الفحص والأوراق، وخرجت في قمة سعادتي وأنا أحتضن الرخصة كعروس كنت أنا أول بختها، لكني لم أجد الموتوسيكل، سرقوه من أمام باب إدارة المرور، قال لي الضابط الذي اشتكيت له ..

هل سنرخصه لك ثم نحرسه كذلك ؟!!

فعدت بالرخصة كمن عقد قرانه ثم هربت منه العروس ليلة دخلتها، فتمسك هو باستلام القسيمة من المأذون !!

"عملت محضر يا عم الحاج"

"نعم عملت محضر .. والمحضر لازال في جيبي .. لكن المحاضر لا يركبها الناس مثل الموتوسيكلات يا عزيزي"

ضج كل الركاب في الصندوق بالضحك، رغم ألم ركبهم المتفسخة في هذا الطريق الطويل، لم يبتسم الفتى الصامت هذه المرة، لكنه ظل يشيح بيديه ويشكل بأصابعه للشاشة التي رأينا عليها صورة شخص آخر، ثم تعالت أصوات نباح الكلاب أكثر وأكثر، فلربما أحست بصوت عجلات السيارة تخترق مخابئهم في الغيطان .

يبدو أن السائق لم يستمريء طرق الركاب على زجاج الكابينة، ربما قطعنا عليه خلوة حلوة قد أعد لها طويلًا، فتوقف بالسيارة تمامًا، وطال انتظارنا في الصندوق، فنزل البعض ليسأله عن سبب وقوفه، فقال بصوت يختلط مع كلمات الأغاني المنحطة التي يستمع لها مع صيدتيه الثمينتين ..

"الطريق واقف يا أستاذ .. الدنيا كلها واقفة وخربانة .. يوجد موكب لتأييد الرئيس، يريدون انتخابه مرة أخرى، من يريد النزول هنا هو حر.. أما أنا فحتما سأصل إلى موقفي مهما طال انتظاري"

موكب لتأييد الرئيس!! .. يترأسه عضو مجلس النواب الثري القوي، أنفق كثيرًا ليجلس على مقعده هذا تحت القبة، ولن يتنازل أبدًا عنه مهما كلفه الأمر.

مرت سيارته الفخمة بجوارنا، أفسحوا لها الطريق عنوة، ومن خلفها عشرات السيارات التي تحمل مكبرات الصوت، تصدح كلها بعبارات التأييد والوعود والتوعد، صوتها كان أعلى من صوت نباح الكلاب التي ناضلت لتصل إلى آذاننا باستماتة، فاختفى صوت نباحها وسط الأغنيات ودقات الطبول .

ترك الركاب الصندوق تباعًا، فلا أمل في الوصول إلا بعد مرور الموكب وعبوره الجسر القديم المتهالك إلى الضفة الأخرى من النهر، حيث المدينة والزحام الأكبر، غادرت صاحبة القضايا وحاملة السجادة وتبعهما فاقد الموتوسيكل، ثم الآخرون الذين كانوا يسمعون، ساروا جميعًا مطأطأي الرءوس !!

كان حتمًا عليَّ أن أغادر كذلك، فنظرت إلى السائق من الزجاج فوجدته يتمايل على نغمات أغنيته المقززة، ويستقر برأسه على كتف رفيقته الساخن، فقلت لرفيقي الصامت المبتسم دائمًا ..

"وأنت كمان مش ماشي ؟"

فأشار إلى فمه ولم يتكلم، ثم تركني أشاهد الموكب وهو يشير إليه بإصبع يده الوسطى، فضحكت كثيرا، فالوحيد الذي كنت أؤمل فيه في هذا الصندوق كان أبكمًا، فردَّدت مقطعا من أغنية السائق المقززة التي صمت أذني من كثرة تكرارها ..

"الدنيا خربانة"

تمت

(٣)

# استدعاء للجنة♣

أصبحت أكرهه، يحيط بي صندوقه من كل اتجاه، يضيق عليَّ رغم اتساعه، ورغم أنني أقف فيه وحدي، لكن أكاد أن أختنق فيه، وحتى تلك المرايا التي تغلفه في كل الأركان، أظنها قد وضعت من أجلي أنا خصيصا، لكي ترصدني، وتحسب عليَّ كل ما قد يفر من أنفاسي، بل وتجبرني أن أرى فيها الحقيقة، حقيقة ذلك الشخص الذي أقابله كل صباح، ثم أعود لأراه شخصًا آخر في المساء، وهو عائد خائف يترصد !!

صار من الصعب علي أن أبدأ به يومي ثم أنتهي به مرة أخرى، لكن أصبح استخدام ذلك المصعد اللعين حتمًا علي، وكلما قررت الهروب منه لأستمتع مرة أخرى بصعود درجات السلم درجة بعد درجة، أرى الحارس يهرع نحوي ويبادر بفتح بابه لي، ليجبرني على الدخول فيه، وهو يكيل لي كل التحيات والتعظيمات الممكنة بيديه وبلسانه، وربما بأصبعه كذلك، لكن من وراء ظهري !!

رحلة صعودي فيه لا تستغرق وقتًا طويلًا، أسكن في طابق متوسط، لكن في عمارة مميزة، لا يدخلها أو يخرج منها غريب، احتياطات الأمن على بابها تنقيها كما يُنقى الثوب الأبيض من دنس الغرباء، يحيط بي سكانها من أعلى ومن أسفل، رجال أعمال وأطباء ومهندسون ومديرون، وهناك كذلك من

---

♣ في مارس ٢٠١٨

يحملون أعلى الشهادات ويُدرسون في الجامعة، لكن في النهاية أظل أنا .. وأنا فقط .. هو ذلك الشخص الوحيد الذي يُعول عليه الجميع، وهو الأهم في تلك العمارة، باختصار وبعبارة مقتضبة قد تكون هي فصل الخطاب في كل حوار.. أنا الحكومة .. ومن ذاك الذي لا يحاول التقرب من الحكومة؟!

ليس مهمًا ماذا أعمل، وما إذا كان عملي مهمًا في نظرهم، هم يهتمون فقط بمنصبي، وما الذي سيفعله لهم ذلك المنصب وتلك النحاسة التي تزين باب شقتي كلما طلبوني، أعلم أنهم ينعتوني دومًا بالغرور، مع أنني لست من أولئك الذين يحاولون التباهي بما هم فيه، فما أنا فيه الآن هو أبهى من أي تباهٍ، ولو كان مصطنعًا، ولا يحتاج قطعًا للتأكيد عليه، أشعر بالفخر أحيانًا بما قد وصلت إليه، لكنني لم أتعال يومًا على أحد، هم الذين يرفعونني هكذا فوق رءوسهم، وما ذنبي أنا في ذلك !!

يحيطونني بطلباتهم المتكررة كل يوم، من خلف الباب وعبر الهاتف وفي انتظار المصعد وعلى العتبات، كادوا أن يخنقوني مثل ذلك المصعد الذي ما أفتأ أن أختلي فيه وحدي، يناضل الحارس لتقديمي إليه قبل الجميع، يدفعهم دفعًا بغلظة ريفي تشققت راحتاه، فتبدو لي طلباته هو الآخر من بين هذه الشقوق، فأهرب منها ومن إلحاحه إلى داخل الصندوق، فلا أجد إلا ثلاثة يشبهونني وينظرون إليّ في المرايا، فأعود إلى الإختناق مرة أخرى، فلربما ألقوا عليّ طلباتهم هم كذلك، فأعطيهم ظهري وأغلق الباب في بلاهة .

تكاثرت عليَّ الطلبات في الآونة الأخيرة، جاري الطبيب يناضل للحصول على إجازة، سيفر بعدها إلى الخليج ويعود محملًا بكرشه الذي سيزداد ارتفاعًا، ربما يطلق لحيته ويعود يعالج الناس بالحجامة. أما جاري المهندس فيريد الترخيص لمشروع من مشروعاته الكثيرة، قد يعرض عليَّ مشاركته في إحداها، أما المدير فيطمع في رئاسة البنك، تورمت عيناه من متابعة كشوف مكافآت الرؤساء، وحتى الأستاذ الجامعي يشتاق أن يكون عميدا، أبحاثه العلمية لن تصل به إلا للترويج لكريمات تفتيح البشرة، والناس لا تهتم إلا بمن يرقصن خلفه من عارضات الإعلانات العاريات، قال لي أنه لن يظل هكذا قابعًا في معامل تسكنها الفئران !!

وإذا فررت من كل هؤلاء فلن أفر من الحارس، يريد العلاج على نفقة الدولة، ويريد تزويج ابنة أخرى من بناته الخمس، ويريد وظيفة لابنه بعد خروجه من التجنيد، كنت سببًا في إرساله له بعيدًا عن خط النار، فرح الحارس وكاد أن يرقص لما أرسلوه له ببذلته العسكرية ليبيع في بقالة متجولة، استبدل التين والزيتون بطور سينين، لعله يستمر في التجارة بعد أدائه الخدمة، يريده أبوه أن يصبح موظفًا لا منافسًا له في تجارته الملقاة على رصيف العمارة، لو كان الوزراء يبذلون نصف ذلك العناء الذي أتجشمه في إيصال الطلبات لهم، لما بقى على أرض هذا البلد محتاج !!

لا أنكر أنني أسعد كثيرًا بقضاء حوائج الناس، علمني أبي ذلك قبل أن يعلمني الصلاة، كثيرًا ما كان ينصحني بذلك وهو يصحبني معه في الطريق إلى المسجد..

"بقدر ما تهتم بالناس بقدر ما يهتمون بك"

بذر بذرة الخير ثم تركها ولم ينتظر الحصاد، مات قبل أن ينتقل من أمانه المطمئن مع الله لأماني أنا المرتبك مع الناس، أظنه يقطف الثمرات الآن في روضة قبره المتسع الرحب، ولا يشعر مثلي بهذا الاختناق، تركني لأصنع من توسلات الناس عقدًا وسوارًا ذهبيًا مرصعًا، لكني أتقيد فيهما ويخنقاني، لا يقتنع الناس باحترامهم لك إلا إذا أقمت لهم سدًا يحجز مصالحهم خلفه، ولا يفيض بالحاجات إلا لمن يستسقيه بالتوسلات، هكذا أنشأتهم الحكومات المتعاقبة، فأدمنوا الحصول على حاجاتهم من أصنام يصنعونها بأنفسهم، ثم يظلون لها عاكفين !!

لم تثمر زرعة أبي إلا فيَّ أنا وحدي، هكذا يتحدث أخي الطبيب دومًا، يظن بأن تفوقه في الدراسة كان بجهده هو فقط، أما دعوات أبي فقد اختصتني أنا وحدي، فأنزلت على مستقبلي الماء فاهتزت آمالي ورَبت، رغم قلة جهدي وتحصيلي وتأخري الملحوظ في الدراسة، لكن توسلات أبي ذلك الشيخ الصالح المحبوب من الجميع قد أسكنتني في مقاعد الحكام، في ساعة ود مع أحد الذين لا يزورون المسجد إلا نادرًا، لم يكن الطلب إلا مجرد مزحة عندما التقى الباشا في باحة المسجد فوق الحصير.

لكن من ذاك الذي يرفض للشيخ طلبًا وهو الذي يتوضأ بماء الجنة لكل صلاة، فتعانقت المسابح وفاءً بالوعود، أما أخي فلم ينل من أبيه أبدًا إلا الدعاء بأن يفتح الله عليه، وينير له بالعلم طريقه، فظل يناضل ويزدرد السهاد في الليل والنهار، ملأ رأسه حتى اكتظت وفاضت علمًا ومرارة، فهاجر

وألقى كل شيء في أحضان الكفيل، يطحن عمره ويعتصر دمه ليصنع منهما خبزًا لأطفاله.

مازلت أتذكر نظرات عينيه لما تبادلنا مقاعد الغيرة، كان على وشك الرحيل، ألقى بألواح الليالي وسهرها مع أنات مرضاه، ليطبب من سيجزل له العطاء، لم أحمل له ضغينة أبدًا، ولا أظنه كذلك، تظل الدماء تحن لقلوبها الطيبة، كنت أغار منه لتفوقه الواضح الذي ظل يلاحقني، رغم أنه يسبقني بعام، يحقد الأخير على الأول دائمًا، لكنه مضطر للتصفيق لأخيه على الدوام، لم ينتظر أبي أو أمي مني أن أبلغ ذلك الشأو الذي يبلغه أخي دومًا، لكنني كنت أنال الفرحة الأكبر لأنني قد تفاديت السقوط بجهد جهيد، وأنال منه كذلك نظرات تقليل واستهانة ظلت تحرقني، حتى خاف عليَّ أبي فألقى بي في يم الحياة، فالتقطتني الحكومة فصرت من الناجين !!

خلف هذا الباب ترقد الطلبات الأهم، طلبات الأسرة اللئيمة، هكذا صرت أسميهم منذ أن امتطيت صهوة جواد المنصب الكبير، الكل يلبي لك ما تريد قبل هذا الباب طمعًا في رضاك، إلا هنا، طلباتهم التي لا تنتهي تكون دومًا بالإجبار، وإياك إياك أن تنسى .. هاك بذلة تدريب جديدة للولد مع حذاء رياضي من ماركة محترمة، لم تر أباك وهو يتجشم اللعب بحذاء "باتا" الصلب، ويحرز الأهداف في الوقت الضائع، وتلك البنت لا يكفيها أن تقتني أحدث هاتف محمول ثم تستبدله بآخر بعد شهرين، لكنها تصل الليل بالنهار تحدثًا فيه، تلك هي المذاكرة يا أبي، لم أعرف المذاكرة يومًا يا ابنتي حتى أفتيك فيها، أما أمهم فقد اقتنعت بكونها قد صارت "فاترينة" عرض زجاجية

لما تقتنيه من ملبوسات ومجوهرات، تشغل يومها كله في تنظيف وتلميع ما يستقر على أرففها من معروضات، ولولا الفضيحة لأظهرت ما يلتصق بجلدها من ملابس، لتثبت أنها من أشهر الماركات !!

خيم الهدوء عليهم هذا المساء، شيء غريب لم أعتده منهم من قبل، اجتمعنا أخيرًا على مائدة طعام، أكلنا وشربنا ثم جلسنا، لم تلاحقني طلباتهم كالعادة، ولم أصم أذنيَّ من تقريعهم لعدم تنفيذ أحد الطلبات أثناء جلسة تأنيب طويلة، كلهم ينظرون إليَّ في تساؤل، لكن أحدًا لم ينبس ببنت شفة، وكأننا ننتظر حدثًا جللًا سيحدث بعد قليل، تمتعت طويلًا بحاستي السادسة، أعلم أن الأقدار تخبيء بحنكة مكنونها المبهم، لكنها تِنبؤ بالشواهد رحمة من الله من انكسار القلوب، فقد لا تحتمل الكسر، هل صرنا على الحافة أم مازلنا نتسلق الجبل، أم أن الهوة السحيقة تنتظر ارتطامنا بالقاع ؟!

دق جرس الهاتف، يبدو أن هذه هي العلامة، الكل ينتبه إلى تلك الدقات، لكن لا أحد يتطوع بالرد، شبح الخوف يتمطى ويردف أعجازًا وينوء بكلل، لو كان امرؤ القيس بيننا لطرح الخمر جانبًا، واهتم بذلك الأمر، كل منا لديه هاتفه المحمول الخاص، نسينا تقريبا دقات الهاتف الثابت القديمة ، لماذا يدق الآن ويقسو بدقاته فوق رءوسنا جميعًا، تلك الدقات مؤلمة حقًا، لم يكن لغيري في هذا البيت أن يحتمل كل تلك الآلام، فتقدمت ورفعت السماعة، لم أجد مجالًا للرد على الكلمات المتدفقة نحوي، تندفع سريعة وصريحة وواضحة لا تحتمل اللبس، وتسدد طلقاتها باستبداد صوب رأسي ..

"يمكنك أن تحضر غدًا صباحًا"

هو اختيار نعم، لكن مع مثلي أنا لا يجتمع الاختيار مع الرفض .

هبوطي بالمصعد كان أسرع في هذا الصباح، لا أخشى المفاجآت إلا إذا اقترنت بالنذالة، تتابعني عينا الحارس في استنكار، اتصالاتي من أجله تأخرت مثل سيارة إسعاف حكومية، تتعثر حتمًا في الزحام، ينعتني دومًا بأن الله قد سخرني للفقراء من أمثاله، لو كان الله راضٍ عنك إلى حد تسخير المخلوقات لك كسليمان عليه السلام، فلماذا لا تدعوه تحت سماء الرضا، أم أن سحابة السخط النافر من عينيك قد زمجرت عليك في صباح خريف متقلب، لن ألتفت خلفي كي لا أرى ذلك السكين الذي يتمنى أن يرشقه في ظهري، لو عدت سالمًا سأطفيء نيران حقده بماء الرضا .

لا أظن أنني سأصل لمكان الاستدعاء في الوقت المناسب، تمنيت ألا أصل هناك أبدًا، لكنه الإجبار والخوف من سوء العواقب ..

"لقد حان الآن دورك، أنت رجلنا"

هكذا تستل السيوف لقهر الرجال، لطالما ردد أبي دعاء المعافاة من قهر الرجال في صلاة الفجر، ثم طلب من الله أن يقعد دعاؤه لأولاده، ربما لم يجد الدعاء كرسيًا عندي ليقعد لي على ما يبدو، أدخلني أبي جنة الدنيا بتوسلاته، وتوشك الجنة أن تنطفيء أنوارها إذا لم أدفع فاتورة الكهرباء، هكذا هو العمل الذي يُدخل جنان الحكومة، يكون أبدًا فيها لا قبل أن تدخلها، فالبقاء في ظلها الظليل هو الجزاء، والخروج منها هو العقاب !!

"لن تفعل شيئًا أكثر من الشهادة في قضية، هؤلاء الأوغاد قد جن جنونهم، يختصمون الحكومة في المحاكم، دالت كثير من الدول من حولنا

بمثل تلك الأفعال الصبيانية، لا تخطيء الحكومات أبدًا، يكفي أنها تحسن اختيار رجالها، وأنت من الذين قد أحسنا فيهم الاختيار، لكن من نختاره لن يختار أبدًا بعد ذلك، ثقة الحكومة فيك تشفعها ثقتك العمياء فيها ..

- لكن أنا ..
- ماذا .. ؟!
- لا شيء .. على الإطلاق
- تكون غدًا صباحًا في قاعة المحكمة، وتنتظرك مكافأة كبرى!!

لا أحد أتعس حظًا من ذلك الساكن في رياض الجنة، ويلتمس فيها مطارق للسمع، ليتنصت على أنين أهل النار، ثم يصبح هذا هو شرط بقائه فيها، بل والصعود فيها إلى أعلى عليين، ظل أبي يتوضأ بماء الجنة، لكنه لم يَبقِ لي إلا ماء النار أغتسل به، وما عليَّ الآن إلا الاختيار بين المائين !!

كل شيء واضح والطريق مستقيم، لكن باب الحق هو باب الخروج، حتى وإن حلفت اليمين، فيمين الولاء يجُبُّ كل الأيمان، وهؤلاء الذين ينتظرونك خلف كل باب سيفرحون، إما منك وإما لك وإما فيك، سامحك الله يا أبي، زرعتني في حقل الخوف والرجاء معًا، فصرت بينهما ممزق السيقان، وتركتني أرعى قطيعين من الخراف والذئاب، ولو غفلت عيني لحظة لما بقيت في الأرض إلا الذئاب، ليتك دعوت لي مثل أخي، أيها التاريخ هلا عدت كثيرًا إلى الوراء، لنبدل مقاعد الغيرة مرة أخرى .

الزحام يعطل الطريق، صرنا كثيرين جدًا، لم أعد أتبين وجوه الناس فكلها تتشابه، الجبهات معروقة واختلطت بالتراب ثم أحرقتها الشمس، صارت

أشبه بأواني الفخار تبحث عن لا شيء حتى تظل ممتلئة دومًا، شيء ما قد سُرق منهم اليوم في قاعة المحكمة، إنهم حتمًا لا يعلمون، وإن علموا حتى فأغبلهم لا يهتم، قد لا تشغلهم إلا لمعة سيارتي الجديدة تحت الشمس، ومكيفها هذا البارد الذي حبسني خلف الزجاج، الحمد لله أنهم سيظلون هكذا، فهؤلاء في معرفتهم خطر كبير، فمقاعد حقدهم أخف وطأة من مقاعد علمهم !!

صدح الهاتف الثابت بالسعادة مرة أخرى، لم تنتظر العائلة اللئيمة عودتي للبيت لأرد عليه، لا يمكن أن تفوتهم هذه البشرى ولو لم يظهر رقم الطالب، فبشروني على الهاتف الجوال، أكاد أن أراهم وهم يرقصون على أنغام النصر المؤزر، فالمنصب هذه المرة يسيل له اللعاب، وسترتدي الجنة التي أدفع فاتورة كهربائها لهم أفخر الحلل، وربما ازدادت الفترينات أكثر!!

وهذا هو الحارس يستقبلني كالعادة، يبدو بشوشًا جدًا هذه المرة، يكاد أن يرقص هو الآخر مع باقي السكان، وضعوا له حراسة رسمية بجوار السلم في مدخل العمارة، ينصبون أمامها صندوقًا آخر يزينه النسر والعلم، فرفع يده إليَّ معظمًا وهو يقول ..

"ألف مبروك يا باشا"

يبدو أنه قد ضمن قرار علاجه على نفقة الدولة !!

تمت

(٤)

# عيناها عسليتان♣

بيني وبينها علاقة عشق قديم، لا أذكر أينا ابتدأ ذلك العشق أولا، ولا من الذي يعشق الآخر أكثر، كل ما أعلمه أنها لم تخلفني مقدمها أبدًا، رغم أننا لم نتواعد يومًا، فاعتدت رؤيتها في كل صباح، تأتي وتنفض عن جناحيها قطرات الندى، ثم تنقر فوق زجاج نافذتي في تناغم، فتتراقص مع دقاتها بقايا أحلامي التي بدأت في الرحيل، وتداعب بسيمفونية متقنة الإيقاع جفنيَّ النائمين في هناء، ليقوما ويستقبلا ضوء ذلك الصباح الفيروزي الرائق، فأهرع لأتابعها من خلف الزجاج .

أكاد أضبط علي مقدم تلك الحمامة البيضاء ساعتي العتيقة، لم أتحول بعد مثل الآخرين وأتخلى عن ارتداء الساعات، توقظني دقات هاتفي المحمول كل يوم في السادسة صباحا، ثم تنتهي مهمته في معرفة الوقت عند تلك الساعة، أتناول من بعده ساعتي التي فارقت معصمي منذ الليلة الماضية، أسمع مع دقات بندولها القديم هديل زائرتي المتهدج، فأحرص ألا أقلقها، فلا أفتح النافذة إلا بعد أن تنتهي تماما من تناول كل حبات الأرز التي تركتها لها على جدار الشرفة في المساء، ثم أتابع نظرات الامتنان في عينيها العسليتين .

---

♣ في يناير ٢٠١٨

لم يحن الوقت بعد للذهاب للعمل، لم أعتد الخروج في الصباح بمعدة ممتلئة، لم تعد المواصلات مريحة كما كانت في الماضي، تكفيني معاناتي من زغدات كيعان الجالسين بجواري، حتى أعاني معها كذلك من التقلصات في الأمعاء، لكن لا بأس من تناول كوب من الشاي الساخن كى أملأ فراغ معدتي القلقة، وأخفف به بعضا من برودة الجو.

تركت الماء يغلي على النار منذ دقائق، وانشغلت بالتقليب في محطات التليفزيون، أعلم أنها عادة قبيحة اكتسبتها مع الزمن، لم تعد الأخبار تأتينا مع نداءات بائعي الصحف في الشوارع، كنت قديما أستمع إلى الراديو بصفاء صباحاته المبهجة، آيات وأدعية وتواشيح، ثم نكات تتبعها أغانٍ لطيفة ..

"أجمل صباح عندي صباحك الوردي صباحك البسام"

ما أجمل أن تسمتع إلى هذه الكلمات مع تباشير الصباح، لكن كل هذا قد ولَّى وأضحى في خبر كان، حتى الراديو نفسه قد صار غير منضبط وتداخلت محطاته واصطدمت ببعضها البعض، لا تسمع فيه الآن إلا شوشرة وصخبا معباءً بالإعلانات، صارت محطاته دنيا هي الأخرى وتمتليء بالفوضى وتشتعل بالحروب في كل مكان .

لم تبق لنا إلا تتابعات شريط الأخبار، ذلك اللعين الذي لا يستقر أبدا على حال، أسعار العملات وتحركات مؤشرات البورصات، وصور تتوالى على الشاشة لا تأتنس إلا بأصوات الانفجارات، نيران الحروب تتمدد بين من يشعلها ومن يحرص على استمرارها، وبينهما يسقط الضحايا محترقين في بلاهة شديدة، لم نعد نجزع من تزايد أعداد القتلى، فقد صار الأهم هو ألا

نتعرف على أيٍ من تلك الوجوه المقتولة، فنطمئن قليلا ونشعر ببعض الأمان، ثم نمصمص شفاهنا في أسى مصطنع وبلاهة أخرى، يتباهى البناؤون بما بنوا وعمروا ويتباهى العسكريون بما قتلوا ودمروا، ثم يأتي السياسيون ليتباهوا بفعل هؤلاء وهؤلاء، ثم يمنُّوا على الناجين بأنهم لم يُقتلوا !!

أوشك الماء المغلي أن يتبخر كله من الإناء، زدته قليلا فقد تركته يغلي لفترة طويلة، لم أنتبه إلى بخاره المتطاير في خضم تتابعات الأخبار، ربما غطى على بخاره الأبيض ذلك الدخان الأسود المتصاعد من إحدى التفجيرات، لابد أنه قد قُتل في هذا التفجير كثيرون، سيارات الإسعاف نفسها قد اشتعلت فيها النيران، أكاد أن أسمع رجات ذلك الانفجار بعنفها وعنفوانها، وتهتز لها أذني، صوت طلقات الرصاص كأنه يدق خلف زجاج نافذتي، لا خلف الشاشة، اعتدنا على تلك الأصوات مؤخرا، كل الأحداث صارت منقولة ومباشرة عبر الشاشات، هناك من يتطوعون بنقل الحرب إلى بيوتنا، لكن هل صاروا ينقلون الحروب صورة وصوتا مجسما أيضا ؟!، أننتظر حروبا ثلاثية الأبعاد عما قريب ؟!

"احمدوا الله أنكم لستم هناك"

يَمُنُّون علينا بنعمة الأمان، بعد أن رأينا الدمار يحيط بكل شيء، ثم يظهر القائد الفذ لينعق وهو يعزف على قيثارة نيرون بعد أن أحرق روما، ولا ينسى أن يوزع ضحكاته المتوحشة في كل مكان ..

"لقد انتصرنا ونحن الآن على الأرض أقوى"

للدمار وجهات نظر مختلفة دوما، يراها من يتسبب فيه، ويسوقها من يتاجرون به، لكن أي أرض هذه ؟! وما الذي سيتبقى منها ؟! بالتأكيد ستبقى عليها الدماء التي لن تشربها، والأشلاء الممزقة التي لم تتسع لمواراتها هنا وهناك .

لم أعد أحتمل رؤية المنظر أكثر من ذلك، قلبت ثانية في باقي القنوات، الأصوات هي نفس الأصوات والصرخات هي نفس الصرخات، أما الصورة فلم تكن أفضل حالا، وباء الكوليرا بات ينتشر في بلد مزقته الحرب بلا رابط، ومجاعات تأكل فيه اللحوم والجلود ثم تنق في العظام، وما زالت ألسنة الساسة والمحللين والنشطاء تتصارع على الشاشات، أنتم من فعلتم أولا وأنتم من بدأتم الانفعال، لن تبقى لهم إلا كعكة محترقة حتى يقتسموا فيها، أما الغائب فهو خائن حتمًا .

لكن ماذا بعد ..؟، نحمد الله مرة أخرى على أننا لسنا هناك، وما زال هنا شاي ساخن سأشربه الآن على الأقل، أصبحت أمُنُّ على نفسي مثلهم بنعمة الأمن والطعام، زدت الماء في الإناء مرة أخرى، فقد تبخر كله وكاد أن يحترق من كثرة التسخين، لابد أن أرتدي ملابسي كذلك فالوقت قد أزف، وعليَّ الذهاب حالًا إلى عملي .

صببت الشاي في كوب صغير، لم يعد هناك وقت للتلذذ بسخونته في كوب أكبر، ما زال هناك سكر في البيت أيضا، أدمنت المَنَّ على نفسي كما يبدو، كما أدمنت سماع هديل الحمامة ورؤية عينيها العسليتين في كل صباح..

لكن أين هي ؟!! لقد تأخرت كثيرا وصار عليَّ الانصراف، لم أسمع نقرات منقارها حتى الآن، أتشاءم كثيرا لانقطاع العادات، خصوصا ما هو مبهج منها، ربما أتت كعادتها ولم ألحظها، يكون صوت هديلها مكتوم أحيانا، فلا أسمعه، صوت الطلقات قد علا هذا الصباح وغطى على كل شيء، اندفعت نحو الشباك لأستطلع الأمر، لم أرها خلف زجاج النافذة كما هو المعتاد، ربما توارت خلف أصص الزهور التماسا للدفء في الشرفة، لكن هل تترك الطعام أيضا ؟!، ظلت حبات الأرز كما هي على الجدار!!

يبدو أن صباحي اليوم قد فسد كله، انفجارات وصرخات وطلقات ودخان، وهديل مفقود لزائرتي العزيزة ذات العينين العسليتين، ولابد من الانصراف حالا، حتى كوب الشاي لم أرتشف منه غير رشفة واحدة، فحزمت أشيائي وخرجت إلى الطريق، صوت التفجيرات والطلقات يتزايد، هل كل الناس تتابع قنوات الأخبار مثلي في ذلك الصباح المزعج، ألم يحن الوقت بعد لإسكات تلك الأصوات المتوحشة، وما تلك الأدخنة المتصاعدة من هناك ؟!، إنها ليست أدخنة المصانع البعيدة، ولا دخان شكمان سيارة لم ينضبط محركها، لكنها .. إنها ..

إنها دبابة تقترب من بعيد !!

هل تحول الكابوس الذي كنت أشاهده على الشاشة إلى واقع من حولي، إلى أتون يشتعل وقد أُلقيت فيه، أهي الحرب حقًا ؟!

اندفعت لأختبيء من الطلقات خلف أي ساتر، لمحتها هي الأخرى محبوسة وسط الركام، تحاول الطيران عبثا بجناحين مرهقين، وتناضل

وسط الأدخنة الكثيفة، عيناها العسليتان صارتا بلون الرماد، لم يقدر جناحها الضعيف على حملها فسقطت مجهدة فوق التراب، جريت نحوها حتى ألتقطها وأنقذها، لكن شيئا ما قد كبل خطواتي، كانت الدبابة تتقدم وتصوب الطلقات يمينا ويسارا، حاولت هي أن تسير على رجليها نحوي، يبدو أنها قد فقدت تماما نعمة التحليق والطيران .

تطايرت بندقية بجواري، ربما يئست منها ذراع فقدت الحياة مع صاحبها، بعد أن ظلت تتشبث بالبندقية باستماتة، التقطتها وصوبتها إلى أي شيء، لم أعتد التصويب إلا لعبًا في السابق، أطلقت النار في كل اتجاه، لم تشعر الدبابة حتى بوجودي، مرت أمامي سريعا وابتلعتها الأدخنة والنيران، أما هي فقد ظهرت للمرة الأخيرة، بياض ريشها الناصع صار بلون الدم، سحقتها الجنازير بمنتهى القسوة، وعيناها العسليتان انطفئتا إلى الأبد، فأدركت أخيرا أننا قد صرنا بالفعل هناك !!

تمت

(٥)

# ساعة حساب♣

دُعي الاثنان أخيرًا للحساب، لم يختلفا على شيء أبدًا، كما اختلفا في تلك الساعة، تدخل الوسطاء للتقريب، لم تفلح أي من تلك المساعي، ساعة الحساب عاصفة وتبحر بطرفيها في بحر مظلم، وهائج يمتليء بدوامات الأطماع، دوامات يظل يتمناها كل طرف أن تبتلع الطرف الآخر، كل يريد أن يستأثرلنفسه بكل شيء، ويقتطع حتى ما قد يجود به على الآخرين، في كل منا طماع يسكن في البدن، ويثبرفي أغواره بسكين، وإما أن يقطعه تقطيع سفاح لا يرحم، أو أن يخرج منه ليقطع في الآخرين، فميزان العدل بالقسطاس لا يُرضي إلا المتعففين، أما هؤلاء الذين يؤثرون على أنفسهم فربما لم يبق منهم في هذه الدنيا أثر.

ورغم أن الجميع قد حرص على الحضور والمشاركة في جلسة الحساب هذه لفض الخلاف بين الاثنين، إلا أن أحد الطرفين لم يحضر، وكان الجميع موافق على ذلك !!

قولوا له "لنا ساعة حساب أخرى"

بتلك الكلمات المقتضبة ختم الأستاذ "خالد" حديثه قبل أن يغلق الخط، ويغلق معه كل سبيل للعودة، يريد تأصيل شعوره بالمظلومية، كان يتحدث من منفاه، أو من دار هجرته كما يسميها دائمًا، هرب إلى هناك قبل

---

♣ في أبريل ٢٠١٨

أربع سنوات، يتفادى أمرًا بضبطه وإحضاره في قضية ملفقة، هكذا يقول عنها، حتى حُكم عليه غيابيًا بعدد وافر من السنين، لكنه أبدًا لم يكن غائبا يومًا عن الوطن، فهو حاضر دومًا، وخصوصًا عند الحساب، ولو بالغياب !!

اعتاد الأستاذ "محمود" أن يجلس في ركنه هذا في المقهى، مع كوب شايه الذي لا يطلبه إلا بالنعناع، مع حجر "الشيشة" القص، لم يكن يشاركه في هذا الركن إلا الأستاذ "خالد" الذي لا يطلب إلا سحلب، بينما يمتص محمود في شيشته ويظل يكركر ويخطط دومًا للدنيا، كان يحسب لكل خطوة قد يخطوها قبل أن يبلغها بعشر خطوات، بينما ينفث الدخان من بين أطلال أسنانه التي تبقت في فكيه، فيتأذي منه خالد الذي يكره الدخان كراهة التحريم، ويسعل من نفثات محمود سعلات متتابعة، ثم يبلع ريقه بملعقة من السحلب الساخن .

- البلد باظت يا خالد
- لسة فاكر!! .. ما طول عمرها بايظة
- تخيل .. متر الأرض المزروعة وصل خمسة آلاف جنيه .. والناس تشتري وتبني عادي!!
- وتدخل بعدها في قضايا ويمكن إزالة المبنى
- القرشين بتوع الغربة هيضيعوا، طب والعيال ؟!
- مفيش أحسن من التجارة .. فيها تسعة أعشار الرزق .. وفلوسك مضمونة وتزيد .. ولسوف يعطيك ربك فترضى

اعتاد خالد أن يختتم حديثه دومًا بآيات من القرآن، لم ينس أنه كان معلمًا للغة العربية، قبل أن ينصرف مسرعًا بعد أن ينتهي من كوب سحلبه الذي كاد أن يلحسه لحسًا، فهناك مصلحة لابد وأن يحضرها، ليترك محمود بين أحضان شيشته ويلثم في مبسمها بمنتهى التلذذ، بينما يفكر كثيرًا في كلام خالد وهو يتحسر على الماضي، ويخاف أكثر من المستقبل .

ظل محمود يحسب للدنيا حسابها كمعلم للحساب، حساباته جعلته يحزم قديمًا متاعه ويسافر للخارج، احتمل شقاء العيش ليجمع المال بشق نفسه، ليالي الاغتراب طويلة وثقيلة، اختبأ فيها من العقارب وكاد أن يعانق الثعابين، في الصحراء كل شيء يأكلك حتى حرارة الجو، لا تدري أنك تبني فيها بيتك من رمال، سيسكن النمل فيه حتمًا بدلًا منك، ثم تعود كما يعود الآخرون لا تحمل في يديك إلا النقود، وفي فمك بعضًا من أسنانك، سيفرح الأولاد بالنقود وتبكي أنت على ما ضاع من أسنان، قد لا تجد ما تقضم به عقلة قصب كنت تمزقها وتهنأ بامتصاصها تحت شجرة ظليلة، ولا تراك إلا السماء وأنت خالي البال .

لم يرض خالد أبدًا بالجلوس في مقاعد المتفرجين، ولم يقنع كذلك بمقاعد البدلاء، لم ير نفسه دومًا إلا كلاعب أساسي في مضمار الحياة، يعدو فيصفق له الجميع، ويحرص أن يكون أول الرابحين.

ولم لا؟ .. في الوظيفة قد أموت وأنفي ممتليء برائحة الطباشير، هل ستظل عائلتنا التعسة هذه تخسر دومًا ؟ .. مات أبي كمدًا ولم يبكه أحد، ألقوه لنا جسدًا ميتًا ثم وقعنا بالاستلام، ليس لنا حق في السؤال حتى عما

جرى له في السجن، تركني في هذه الدنيا وحدي أصارع الحياة، ورثت كل أفكاره وقناعاته، لكني لن أحتمل خيباته، نسجت بخيوط أفكاره وشعاراته سربالًا أتوسد به، لا بأس من التعاطي مع الحياة بقوانينها، صلاحك وتقواك قد يدخلانك الجنة، لكنهما كذلك يلبسانك تاج الشرف والأمانة في الدنيا، سمعة طيبة قد تحتاجها حتمًا، في التجارة كل شيء مباح إلا أن نخسر.

تغيرت الأحوال كثيرًا في البلد، كل شيء صار على الهوى، فهوى الجميع إلى بئر آسن، لم يقنع أحد بما أصابه من طين، فصار يرمي به على الآخرين، وحتى لو كنت من أولئك الذين يشاهدون من فوق البئر سينالك من لطخات الطين ما يكفيك، في أيام قلائل سقط نظام كنا نظنه لن يسقط، وعاد الإخوان ليمتطوا صهوة جواد جامح، ثم سقط الإخوان وعاد النظام مرة أخرى، لن تأكل من لحم ثور لم ينبك قبضة من طحينه، ليس لك إلا أن تشاهد هلاك الثور في الطاحونة، الأفضل أن تلتزم دارك وتغلق عليك بابك، حتى تمر الغمامة وتشرق الشمس من جديد .

- اسمع نصيحتي يا خالد .. الطوفان قادم وسيجرف في طريقه الجميع
- عندك كل الحق يا محمود .. لكن هل أهرب وأترك خلفي كل كدي وتجارتي .. سيضيعها الولد الأرعن !!
- لا تخش شيئًا، لديه أب ثان سيهتم به، ولديه أخ كذلك لم ينجبه أبوه

حسبها محمود جيدًا، أموال الغربة كماء أجاج لا يروي غلة العطاشى في الوطن، كان يجب استثمارها كي لا تأكلها حاجات الأولاد، لا يعلمون كم شقيت في الحصول عليها، ولا يبالون بإنفاقها في لا شيء، قطار الحياة يحرق كل وقوده للوصول إلى المحطة الأخيرة، لندرك في النهاية أنها النهاية بالفعل، وأن هذا القطار لا يعود أبدًا إلى الوراء، أما خالد فلم يحسبها، بل خطط لها وأسرَّها ثم ألقاها لمحمود، حتى يقتنع بأنه بارع في الحساب !!

- لكن كيف خرج من البلد يا أستاذ محمود ؟
- حملته الأمواج أو العواصف .. هل تظنون أنه سيبقى هنا حتى يقضي ما تبقى له من عمر في السجن .. أو يخرج منه ميتًا مثل أبيه
- لكن هؤلاء الإخوان هم سبب كل المصائب في البلد
- والله إنا لم نرهم قد فعلوا شرًا حتى نتهمهم به، كل ما نسمعه كلام

ظل محمود يحترق غضبًا مع كل من يتساءل معه عن غياب خالد، ويرجع السبب في هؤلاء الذين ظلموه وآذوه، فهجر وطنه وأهله وأحبابه، بل ويتجاسر أن يعلن ذلك في كل مجتمع، حتى ظنه الناس إخوانيا مثل متعصبًا، ونصحه آخرون بالكف عن ذلك، حتى صار يجلس في المقهى وحيدًا.

نشأت التجارة ورواها الأولاد بعرقهم فاهتزت وربت، "علي" ابن خالد و"أحمد" ابن محمود، يبدو الاتفاق على خير ما يرام بين الكبار، لكن الصغار على غير وفاق دائم، يعاني أحمد من تردد علي، لا يمتلك علي القدرة على اتخاذ قرار، يتفق معه في المساء على شيء، ثم يعود ويغير رأيه في الصباح، يكلمه أبوه في اليوم مرتين أو ثلاث، يتدخل خالد في كل صغيرة قبل الكبيرة،

يشعر بأن أباه محمود بلا رأي في أي شيء في ذلك المشروع، ينتظر الأرباح كل شهر فحسب، ويجلس ليعدها كل مساء وهو قرير العين هانيء البال، يكفي أن أمواله تربح وابنه قد استقر الآن في وظيفة، وإن لم يكن يشعر فيها بأنه صاحب المال !!

- أريد فض الشركة يا محمود
- لماذا يا خالد ؟!!
- لدي مصلحة هنا في هذا البلد، وأريد رأس مال
- أنت تريد أن تبيع نصيبك إذًا ؟
- نعم

يبدو أن الأمور قد اعتدلت معه كثيرًا هناك، هؤلاء الإخوان لا يُغلبون أبدًا، في كل أرض لهم مصباح، وعفريت يخرج لهم منه، يطلبون منه فينفذ لهم كل ما يريدون، مسالكهم كثيرة وربنا يسهل لعبيده !!

لكن الإبنين لم يقتنعا بفض الشركة، من يبيع لمن ومن يشتري من من، وأين نحن من كل هذا، أليس لنا رأي فيما نعرق ونكد فيه، هؤلاء الكبار يتدخلون في حياتنا كثيرًا، وقد يفسدوها بتصرفاتهم تلك، لابد من وقفة حازمة فالمشروع يجب أن يظل قائمًا، هكذا قال أحمد لعلي الذي وافقه أولًا، لكنه عاد وبعد يوم واحد فقط وأبلغه بوجوب فض الشركة، فبدأ الخلاف يزداد بين الشريكين الصغيرين، وبين الأبوين كذلك، فقد اكتشف محمود أنه سيدفع كثيرًا لخالد إن هو اشترى منه، وأن حصته في رأس المال

قد تقل كثيرًا إن هو خرج من الشركة، خالد هذا لا يغلبه أحد أبدًا، كيف حسبها هكذا ليكون رابحًا في الحالتين !!

لم يتخيل أحد في المقهى أن محمود بعد صداقته وشراكته ودفاعه المستميت عن خالد، سوف يتحول هكذا وبمثل هذه السرعة إلى النزاع معه، كل منهما يتمسك بالخروج من الشركة، مع حقه كاملًا في رأس المال والأرباح، لا أحد يريد تحمل أي خسائر، أما الأولاد فيتمسكون بالبقاء سويًا رغم الخلاف، وانعقدت الجلسة للحساب، فحكموا لمن طلب الخروج أولًا بأن يتحمل الخسائر، فوافق محمود فرحًا وإن اضطر أن يبيع نصف البضاعة ليسدد نصيب خالد، الذي وافق كذلك على مضض وهو يردد ..

"وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم"

ثم تمتم بغير كلام الله على غير عادته

"حتمًا ستحين ساعة الحساب"

عاد محمود يجلس في ركنه الأثير في المقهى، ويحيطه الرواد من كل اتجاه، وكلما سأله أحد عن خالد كان يقول وهو ينفث دخان شيشته من بين أسنانه المتساقطة ..

" هؤلاء الإخوان قد خربوا البلد"

فتترامت إلى مسامعه كلمات أحمد وعلي، اللذين تحولا إلى الصداقة بعد فض الشركة ..

"هؤلاء الكبار قد خربوا بيتنا" !!

تمت

(٦)

# بلغني أيها الديك السعيد♣

أصبحت مكومًا في البيت كما القنفذ، أحطت نفسي بالأشواك وأصبحت أقول لا مساس، صوت تقريعها اليومي المتكرر قبل أن تنصرف إلى عملها استعذب صباحاتي، سقاها بأُجاج إمرأة لا تشبع من الإبحار فيها، تبدأ السفن قوية ثم يدركها الحطام، لا يستوحش البحر أبدًا هلاك السفائن فيه، إنما يبحث عن سفن جديدة لتمخر فيه وتمخر حتى تهلك، أو أن تصطدم بصخوره المدببة القاسية وتغرق، ويبقى البحر دوما بريء الذمة مرتاح الضمير!!

- صحيت ؟ .. لأ
- أحضرلك فطار؟ .. لأ
- أظبطلك المنبه تاني ؟ .. لأ

ثلاث لاءات صرت أبدأ بها صباحاتي التعسة، وتتكرر الأسئلة في كل يوم، والردود هي نفس الردود، بلا ملل، أبدو كما النائم المستمتع بالكسل وهو محسود عليه، بينما هو ليس أكثر من متقلب أرهقه السهاد فوق أشواك القلق، ويلتحف الخوف كثعبان يعتصر سَكِينته، ويضمر خنقه بملاءات الحرير.

---

♣ في أغسطس ٢٠١٨

ليس أشد على الرجل منا إلا أن يصبح غير ذي قيمة، بعد أن كان ملء السمع والبصر، ومحور الكون الذي كونه لنفسه، ووضع له قوانين جاذبيته وتنافره، ليصير هو الشمس التي تدور في فلكها كل الكواكب، ولا تستطيع الإفلات من مدارها إلا إذا اختل توازن الكون، أو انطفأت الشمس في خريف العمر، وها أنا الآن قد انطفأت، وخبت جذوتي، منذ أن ودعت صرخات ذلك المنبه في كل صباح، هذه الصرخات هي التي كانت تضبط إيقاعي، وتجر من خلفها زفرات وتأوهات تحتضن الألم فتهوي به إلى قاع الاستمتاع !!

لم أعتد النوم كثيرًا، ظل نومي متقطعًا دومًا، توقظني أقل الأصوات ضجيجًا، ولو كان صوت فرار قطرة ماء من صنبور معطوب في الحمام، لكني ظللت من أعداء الاستيقاظ المبكر على كل حال، صرخات المنبه تتقمص معي دور مطرقة تدق ولا ترحم، ولا تجد إلا رأسي في الصباح، فتحل في تلك الساعة قطرات الندى الرطبة محل حبات العرق الجافة المنتشية فوق الجبين، ويبقى بينهما البرزخ الذي لا تبغي فيه نشوة التلذذ بمتعة النوم على القدرة على احتمال آلام السمع والطاعة، فلا مفر إذًا إلا أن ننساق خلف دقات الاستيقاظ لكى لا تجلدنا أسواط العصيان .

لكن هذه الصرخات قد صمتت إلى الأبد، لم يعد صراخ المنبه اللعين عندي إلا صوتًا يتماهى خلف جدران الماضي، وتطمسه أستار النسيان، أضبطه في كل صباح نعم .. لكن لكى أشعر فقط بأنني موجود، لأشعر أن هناك شيئ ما مازال يناديني، لم أعد أنام ملء جفوني لتوقظني شوارد الصرخات، ولم يعد يهدني ذلك الحرث الممتع عندما تتشبث بي الحياة لتنتزع

اللذة، فأصعد مع الموج الهادر إلى قمة لم أبلغ مداها، ثم تحطني الموجات ممتصة كل طاقتي، ليصبح الاستيقاظ مبكرًا همًا أحمله .

"لم تعد تفعل ما هو مطلوب منك، أين ذهبت طاقتك وعنفوانك"

يالها من إمرأة لا تشبع، صوت تقريعها القاسي يلهب ظهري بسوط الجحود والنكران،تنسى النساء كل شيء ولا يتذكرن أبدًا إلا ما يردنه فحسب، مازالت ترن في أذني كلمات تلك الجنِّية في ألف ليلة وليلة للفتى عزيز..

"الخبز مخبوز والماء في الكوز، وما أريد منك إلا أن تعمل معي كما يعمل الديك، أن تأكل وتشرب وتنكح"[١]

لكن يبدو أنه قد سقط الديك، يالهذا المنبه اللعين، ظللت أعمل معه لسنوات، وأحتمل صرخاته القاسية إذا أشرق عليَّ الصباح، كما احتملت معه صرخاتها الشبقة إذا جن الليل، في المتعة ألم يستلذ به كل باحث، ولو كان الذهاب إلى العمل في الصباح المبكر جدًا حملًا ثقيلًا ينوء به كل كاهل، إنما ظل عنقي المستقر من فوق كاهلي هو الذي يدفع الثمن، لكي يظل مرفوعًا ويتباهى حتى بالتعب، حتى فقدت كل شيء صرخات المنبه وصرخاتها، وطأطأت عنقي، صرت كحامل جوال من الملح، يمشي محني الظهر يحجل، ولا يهب بملحه هذا للظمآن إلا ظمأً، ولا يشفي له غليلا !!

---

١ من قصة تاج الملوك في ألف ليلة وليلة

أدركت في لحظة واحدة، أن العمر الذي جهز حقائب سفره وانتظر قطار الرحيل، قد لا يمكنه أن يعود ويفتحها مرة أخرى، ليرتدي ملابسه المزركشة المفعمة بألوان الأمل، فلا لون اليوم إلا لون ذلك الرماد الذي تعلق بالخطوات التي أرهقها التيه في السبل الضليلة، فلا بأس اليوم من التمني واستجداء الذكريات، عساها أن تبقى مكانها، وعساها أن تُذكِّر الذين سنتركهم بعدنا أنه كان هنا من لم يبرحوا هذا المكان؛ حتى ملأوا الدنيا وشغلوا الناس.

للرجل منا طاقة قصوى تعينه على الاحتمال، إلا أن يكون مهملًا يستجدي الاهتمام، لماذا يعطينا العمل القدرة على الاستمرار رغم الشكوى، حتى إذا ما استغنوا عنا انهارت طاقتنا واستغنت عنا الحياة، الفراغ يقتل أحيانًا وإن غبطه أولئك الذين يرتعون في نعمة الانشغال، صرت وأنا في الفراش كبالون فارغ يلهث خلف امرأة تسابق الشبق كمقذوف لا يلوي عن بلوغ الهدف، تخاف هي الأخرى من نضوب المعين واستغناء الارتواء !!

لم يعد الأولاد يعتبرونني موجودًا، كل شيء يريدونه صاروا يطلبونه من أمهم، صار كلامي ثقيلًا عليهم ثقل الأعاصير في الشتاء، فتجمدت كل الأنهار التي كانت تجري بيني وبينهم، وقت أن كنت مشغولًا كانوا يطالبونني بالتفرغ لهم، ووقت أن تفرغت لهم انشغلوا هم عني، ربما أدركوا كذلك أنه لم يعد لي أهمية في هذه الحياة، صرت أعمل عمل الديك فحسب، أغالب وأكابر ثم أهوي مقطوع الأنفاس مذبوح الفؤاد، ربما يتم ذبحي إذا لم أعمل عملي بإتقان !!

لم يعد المنبه اللعين يصرخ، لم أُعِد ضبطه مرة أخرى لأخرج من الفراش، لم تعد لي حاجة إلى صرخاته المزعجة. فلم أنم مرة أخرى، بحثت كثيرًا عن عمل آخر منذ أن تعطلت، لكن دون جدوى، عبارات الاستهجان تلاحقني في كل مكان، هل لازلت تبحث عن عمل بعد أن بلغت من العمر ما أوشك أن يحني ظهرك، ألم تستبقِ للغد شيئًا يغنيك عن ذل السؤال، إنهم لا يدركون أنني أبحث عن نفسي لا عن المال، عن تلك الذات الممتهنة في الفراغ، عن ذلك الانشغال الذي هو نعمة لا يقدرها إلا كل من لم يعد يهتم به أحد .

هل صار حتمًا على أن أنتظر نهايتي وأنا مكوم هنا هكذا، أنتفض كديك صار يؤذن في غير أوانه، ويراه الناس سعيدًا بفراغه المقيت، رغم ارتخاء أحبال حنجرته، فإذا انتهى كل شيء نقلوني من هنا إلى هناك، ودون أدنى صراخ للفراق !!

لكن لا .. ربما كان هناك اختيار آخر .. لابد أن يكون كذلك، ما الذي أفقدك القدرة على الفعل منذ زمن، كنت قديمًا تحكم الظروف وتغير الواقع، حمق القرارات يحكمه التأخر في اتخاذها، ولابد أن هذا هو الوقت المناسب، والجسارة قد تحتاج لشيء من المغامرة، لم يعد هناك ما تخسره أيها الديك التعس، فلم التردد ؟!، موت البطء لا يختلف عن موت السرعة، كلاهما موت على كل حال، بل إن الموت بالبطء يحمل معاناة أكثر!!

انتفضت من الفراش هذه المرة دون صراخ المنبه، بلذة مرتاح يحن إلى التعب، أشواك القلق لم تعد تؤرقني في مرقدي، أغط في نوم عميق منذ ارتميت بجوارها وهي ممتنة، لذة مواصلة النوم تقتلها متعة الاستيقاظ

فتبلغ حد الارتواء بالانشغال، لم يعد يلحقني أحد منهم في الصباح، عدت لأصحو أولهم وأخرج، ثم أعود للبيت وأغفو آخرهم، نزل الخبر عليهم كما الصاعقة، لم تعد هناك لاءات ثلاث، عادت السفينة تمخر في البحر مرات ومرات، ولا تكابر أو تستسلم لقسوة الصخور، ولم يعد هناك ديك يهوي ما تبقى من ليلته، بل يستقبل الصباح وينتفض ويصيح في الوقت المناسب، كل شيء عاد للصراخ إلى حد الشبق، حتى اكتملت الصرخات ..

مات الديك .. إلا أن الكل يؤكد بأنه قد مات سعيدًا !!

تمت

(٧)

# شاشة زرقاء ♣

الليل يجثم بأستاره على البيوت، أسكن في تلك الحارة الضيقة، بيتنا يقع في آخرها، يغلقها تماما في النهاية، مكان لا يصلح أبدًا للفرار، إن أردت أن تقع في براثنهم عليك فقط بالدخول إلى هنا، وستتكفل ألف عين بالبحث عنك، وألف يد أخرى ستناضل من أجل الإمساك بك، ثم تتبارى من بعدها الألسن متسائلة في دهشة ..

"هوا في إيه ؟!"

لتشيعني من بعدها مئات القصص المروية، روايات لن أشارك في تأليفها بالقطع، كما يشارك هو في تأليف معظم القصص المروية عنه، ويشعر بالفخر وهو يجلس كل يوم على عتبة داره ليسمعها تتواتر من خلف أكتافه، لا يلتفت أبدا لمن يتقولون عليه، يبدو أكثر سعادة كلما ازدادت عنه الروايات، أكاد ألمحه كل يوم وهو يتابعني من هناك وأنا قادم من بعيد، لم تتغير جلسته هذه منذ سنوات طويلة، لست أدري ما الذي قوى قلبه وجرأه على الاستمرار في السكنى في هذا الزقاق الضيق، ليصير مهددا فيه في كل وقت، إلا أنه لم يهرب أبدا في أي مرة، ولم يتلبسه ذلك الخوف والارتجاف الذي يحدث لي الآن !!

---

♣ في مارس ٢٠١٨

كنت أنا و "ناجي" أصدقاء في الطفولة، لعبنا كثيرا على تلك العتبات قبل أن تتطاول هكذا في البنيان، لم يعد ناجي من الحفاة كما عهدته قديمًا، يحترمني كثيرا ويحيرني كذلك بمقدار احترامه لي، كم هو مؤلم حقا أن يتحول صديق الطفولة إلى مجرد لغز، لم أعجز عن حله قطعًا، إنما أفر من ذلك الحل لعدم إدراك النجاح، هل هو لص في هيئة تاجر، أم تاجر تحسده اللصوص، هل يقتات من القفز على أسطح الغرباء، أم يتاجر بجلوسه الدائم على عتبات الجيران، كلانا ينظر إلى الآخر نظرة قليل الحيلة الذي لم يكفه ما في يديه، أليس الحق بعيدا في هذه البلاد بعد الباطل عن عدالة القضاء ؟!

لم نعد نسمع في الطرقات إلا نعيق الغربان، تعبأت الشوارع مؤخرًا بحاملي السكاكين، صارت موحشة ونفر منها مهرعين إلى البيوت، في كل يوم تغشانا سيارة شرطة كبيرة، تحمل في حديدها القاسي ما يكتظ منها ويتساقط، فتعود وتأخذه مرغمة في اليوم التالي، كلمة واحدة قد تخرج منك على سبيل السخرية قد تودي بك إلى موارد الغياب، تتلعثم الألسن فرارًا من ملاحقة الآذان، لم يبق أمامي إلا تلك الشاشة الزرقاء، أفر إليها كل يوم لأبوح لها بما أعانيه، صار صدرها أرحب من كل الصدور، حتى صدري الذي قد ضاق بما يجيش به، وقد يبوح بما لا يقال كما يقول عمر الخيام !!

وصلني التهديد أخيرا، كثيرون قد حذروني من ذلك التظاهر الزائف بالشجاعة، احتضنني الخوف كثعبان راقد ينتظر الدفء ليلدغني، يبدو أنني قد أدمنت ذلك النضال الباهت المستكين، ظننت يومًا أنني سأغير ذلك العالم، إنما من خلف تلك الشاشة الزرقاء، في كل يوم أكتب وأهاجم هنا

وهناك، أتمتع بجرأة يحسدني عليها كل المتابعين، أعلم أن كثيرا منهم مخبرون، لم أكتب كذبا في أي يوم، معلوماتي كلها صحيحة، فأنا أدقق فيها أيما تدقيق، أبدو في نظرهم أخطر من أولئك الخراف الذين ينساقون وراء كل شائعة لعشب، أو خلف كل سراب يحسبونه من ظمأهم ماءً، فتعلو أصوات ثغائهم فيطرب لها المخبرون، يكون الكذب أكثر فائدة لو أطلقته بنفسك لتلوكه ألسنة الخصوم، فيستحيل صخورًا تتكسر عليها أنيابهم بالمجان !!

"تم نسخ كل ما كتبته وتم إرساله إلى من يهمه الأمر لاتخاذ اللازم"

هكذا قالها لي من يهتم بهذا الأمر أكثر مني، والتهمة هي نشر معلومات كاذبة بغرض الفتنة، هي كاذبة قطعا، التهمة طبعا لا المعلومات، لكن الخصم قد سرق وشاح الحَكَم وامتطى صهوة النزال، وقد لا يعيدوا الوشاح لربه قريبا، ربما لن يتعدى الأمر مجرد تهديد أجوف، وربما لا ... لكن من ذا الذي يؤكد لي صدق هذا التهديد من كذبه، اعتدت النضال نعم، لكني لم أعتد تلك الإهانات التي أسمع عنها وراء القضبان، كنت أشاهد المظاهرات على شاشة التلفاز، اشتعلت ثورة وانطفأت وأنا أهتف بحرقة، لكن فقط إذا انقطعت الكهرباء، لم أعرف لنفسي دورًا غير هذا، كل مُيسر لما خلق له كما يقولون .

مررت عليه وألقيت السلام، ناجي يرد السلام في معظم الأحيان، وجهه مبتسم دائما، لا يحمل لتلك الدنيا أدنى اهتمام، ربما لا ترهقه من فوق أكتافه رأس مثل تلك التي أنوء بحملها، تكتظ بعلوم وفنون ومباديء، لو يَشْرِها صاحبها ولو بثمن بخس فلن يجد حتى الدراهم المعدودة، هذي بلاد

تبيع العلم فقط لكنها لا تشتري المتعلمين، اختصر هو طريقه منذ البداية واكتفى بالقدرة على القراءة والحساب، ليبدأ من بعدها طريقًا يعرفه الجميع، لكن أحدًا لا يجرؤ على التصريح له بذلك، يتذرع الجميع فقط بالصبر على البلوى من سكناه وأهله تلك بيننا، ومع ذلك يهرعون إليه في الملمات، هو يجزل كثيرا في العطاء ولا يسأل عن إعادة عطاياه أبدًا، أصبح الدائن الدائم للجميع فاستحق لقب المحسن الوحيد .

رأيته مرات وهو مقبوض عليه، لم يعد يجلس منكبا برأسه في سيارة الشرطة كما كنت ألحظه في كل مرة، صار في الفترة الأخيرة يرفع رأسه وكأنه يتباهى بما قد حقق من إنجازات، لم يخلُ بيت في الزقاق من بقايا إحسان مائدته العامرة، صار معشوق النساء القادر على جلب كل جميل، تشيعنه بالدموع وتصببن جام غضبهن على تلك الحكومة الظالمة، ولا يهدأن إلا بعودته من احتجازه ولم تمسسه عقوبة، فيرقصن على أنغام النصر والخير الذي عاد، فترتفع رأسه أكثر وأكثر!!

تلك الطَرقات على الأبواب تؤلمني، أكاد أسمعها من كل اتجاه، في كل لحظة تخترق أذنيَّ بلا استئذان، أشعر أنهم قد اقتربوا مني كثيرًا، صرت أرى بابي يهتز بمجرد سماعي لأية طرقات على أي باب آخر في الحارة، ثم تتبعها دقات قلبي الذي صار ينبض بلهفة لم أعهدها، وكأن دقاته تريد أن تفر من وحش يترصدها، تكاد أن تحطم قفصي الصدري، وكأن القلب كان مسجونا وخائفا طوال عمري في ذلك القفص، وقد حان الوقت لتكسير الضلوع ليخرج إلى الحرية، ولو كان الثمن هو قتلي .

هل كان حتمًا عليك أن تقول الحقيقة ؟!

في كل يوم يزداد خوفي، يبتعد التهديد نعم؛ لكن صرخات سيارات الشرطة تتعالى، ربما يأتون إليَّ هذه المرة، لم أعد أثق في أي ركن في البيت لكي أتوارى فيه، قد ينطقه الله فيرشد عنيَّ لينجو بنفسه، هل كلمة واحدة صحيحة تقلب موازين الحياة إلى هذه الحد، نبحر في بحر من الأكاذيب منذ سنوات، أيصير الصادقون فقط هم الغرقى ؟!، في بلدة تمتليء بالعميان يكون المجنون هو مصير المبصر الوحيد، أم أنني اعتدت النضال هكذا سهلا بلا أشواك أو جراح .

ماذا سيقول عني أهل تلك الحارة ؟، هؤلاء الذين كنت أظن أنني أدافع عنهم، وأدافع عما يملكون في هذا البلد ويُسرق منهم، أيتهمونني بالسرقة أنا الآخر، أم بالكذب ؟!، أم أنهم لا يشعرون بوجودي أصلًا ؟!، كم من الفرايا تتخذ طريقها للتصديق فتدهس الحقيقة نفسها في طريقها، لم أمتلك مالًا مثل ناجي لأحسن به إلى هؤلاء وأجتث به كذلك ألسنة كذبهم، هل قول الحقيقة صعب علينا إلى هذا الحد، فننفر منه فرار الحُمر من القسورة !!

رد ناجي عليَّ السلام بحرارة هذه المرة، يبدو مطمئنًا ويجلس بمنتهى الأريحية، تقدم مني والابتسامة تسبق طلته كالعادة، ليس هذا هو الوقت المناسب لهذا الاقتراب، ربما يلمح ذلك القلق الواضح وهو يتطاير من عيني، ذكرني بالأيام الخوالي وملاعب الصبا، تذكرت أنه كان يدافع عني دومًا، يستر عورة ضعفي أمام حماقة وشراسة باقي الصبيان في الحارة، ومع ذلك ظللت أتعالى عليه، كثيرا ما ضبطته في حديقتنا وهو يسرق البرتقال، لم يعد هناك

برتقال ولم تعد هناك حديقة، كل شيء صار بلون الأسمنت الكئيب، لم يبق من حواره معي إلا طلب واحد، طلبه مني رغم أنه لم يعتد سؤال أحد أبدًا، هو فقط يريد أن يتعلم ؟!، يريد أن يتعلم "الفيس بوك"، تلك الشاشة الزرقاء التي صار يجلس خلفها الجميع، يلتهمونها بعيونهم كما تلتهم هي أوقاتهم !!

لم أنتبه إليه وإلى طلبه، تخشبت أذناي على صوت أيقظني من النوم كثيرًا، فأنتفض منه بعد أن امتلأت مسامعي بسطل بارد من الخوف، وأبدل غطاء الأمنة بعورة اليأس من التواري، فكل الكون قد صار ينظرني ولو في بطن أمي دون غشاء، وصوت سرينة الشرطة القميء يتعالى ويخترق السكون، تقترب سيارتهم الزرقاء ذات الصندوق المغلق منا كسكين غادر تحمله يد سفاح لا يرحم .

لم أدرإن كانت قد أتت لكى تقبض عليه، أم عليَّ، كل ما أدركته هو تلك العيون التي أحاطت بنا من كل اتجاه، عيون انقسمت نظراتها بين الشماتة و الأسى، أغلبهم سيرقص عند عودة ناجي ..

فلم أجد بُدًّا من الإمساك بذراعه القوية، ثم تواريت خلف ظهره وهمست له ..

إن كنت تريد تعلم "الفيس بوك"، تلك الشاشة الزرقاء، فعليك أن تعلمني السرقة أولا !!

تمت

(٨)

# لعله الله !!♣

تشابهت الأيام عليّ، اشتبكت مع بعضها البعض، تشبثت برقبتي كعقد من الملل، يلتف حولها كثعبان يخنقني، كل شيء في تلك الحياة قد صار عبئًا، ثم استحال عبثا، أفي هذا العمر وتعود لتبحث مرة أخرى، نفسك التائهة لم تهتد بعد إلى شاطيء، ظللت تحلم طويلا حتى رحل الحلم عنك وترك لك الحقيقة تلسعك بسوطها، لتظل هكذا تجدف بلا أمل في الوصول، حتى يغرق القارب أو أن تموت أنت من التعب !!

- بابا ؟ أريد الاشتراك في مسابقة
- جميل يا نور، وما هي هذه المسابقة
- نقرأ خمسين كتابًا ثم نقوم بتلخيصهم، أعلنوا عنها اليوم في المدرسة
- رائع، القراءة ستفيدك كثيرًا
- لا .. أنا أريد أن أفوز كذلك، ويجب أن تساعدني
- سأساعدك طبعًا، لكن ليس في الفوز، جائزتك الكبرى هي أن تقرأي الكتب

---

♣ في مارس ٢٠١٨

ولم لا أساعدها ؟ الكتب كثيرة عندي وسأعطيها كل ما تريد، هؤلاء الأطفال يتعاطون الحياة ببراءة مستفزة أحيانا، لم أشأ أن أقول لها أن كل هذه المسابقات معلوم من يفوزون فيها مسبقًا، دون منافسة، لتوي قد خرجت من مسابقة أدبية كبيرة، كنت قد استعددت لها كثيرًا، علمت أنهم يستبعدون أدباء الأقاليم من قوائمها القصيرة، ربما رفقًا بهم من عناء السفر واستغلال سائقي الميكروباصات، سمعت أحدهم يقول يومًا أن هؤلاء الفلاحين قد أفسدوا الوسط الأدبي، لست فلاحًا لسوء حظي كذلك، لكنهم ينعتون كل من يسكن خارج القاهرة بذلك، ما أحلى أن تنتظر البذرة وهي تشق الأرض لتنبت خبزًا للجائعين، وأن تحتضن الثمرة بيدك احتضان المحبين، وتهبها عن طيب نفس لمن يشتهيها، لكنهم استمرأوا الافتراس، والحب عندهم صار هو خطف المحبوب، لكننا في نظرهم فلاحون!!

وتعود نور مرة أخرى ..

- أين الكتب يا بابا
- أعددتها لك يا نور، عليك أنتِ بالقراءة ثم التلخيص
- ألن تساعدني ؟
- لا .. لن أساعدك، عليك أن تقومي بكل شيء بنفسك

سلك الكتاب طريقه إلي، كان قد ذهب خطاءً لكتب نور، لا يصلح بالقطع لها، لا أخفي أنني من أولئك الذين يتخذون موقفًا غير محايد من هذه الكتب، فلست من المولعين بقراءتها ولا من المؤمنين بأن التنمية البشرية تحتاج أساسًا لقواعد محددة، كي نقرأها في كتب ونوحد تطبيقها على

الجميع، العامل منهم والخامل والنشط منهم والكسول، وأعترف كذلك أنني كنت أعتبر تلك الكتب مجرد منشورات، كغيرها من المنشورات التي تكلفنا بها الإدارات العليا للشركات التي نعمل فيها، لنعلقها في الردهات والطرقات، ومن وضعها هو أول من لا يعمل بها، أما نحن فقد لا نضطر لقراءتها إلا أثناء الانتظار في طابور قبض الراتب، كنوع من أنواع التكفير عن الذنوب بشغل دقائق الانتظار بالاستغفار.

لكن ضاع الراتب ولم أعد أنتظر شيئًا، عدت للبحث مرة أخرى، صرت أتمنى حتى تلك المنشورات التي تنتهج أسلوب اغسل يديك قبل الأكل وبعده، وأنا في الحقيقة أغسل يدي أثناء الأكل كذلك، عندما يناديني شخص سمج في درجة مدير مثلا، ويتناسى أنه لا سلام ولا كلام على طعام، وأنا أعشق الطعام بقدر كراهيتي لفراق الأطباق الممتلئة، وللكروش الأكثر امتلاءً.

قراءة الكتاب لم تكن تغنيني عن إدارك حلم لن أصل إليه أبدًا، مجرد نصائح لن تشد همة لهثت وانقطع حيلها من كثرة العدو في سباق فئران غير متكافيء، وما طاقتي لذلك وكيف ؟ كنت أتجهز للسفر إلى مدينة الإسكندرية، ويبدو أن شيئا ما قد دفع به إلى يدي خلال رحلتي بالقطار، ولم لا ؟!، لكن في التنمية البشرية ؟! وهكذا بين بائعي القرص بالسمسم والحمص والفول السوداني، وجلدة تحفظ البطاقة والكارنيه بجنيه، أخرجت الكتاب للقراءة في محطة طنطا، بعد أن فاتني الديزل السريع فاضطررت لانتظار الآخر البطيء جدًا، وفيك شيء لله يا سيد يا بدوي، فقد شدني الكتاب بما يحتويه حتى وصلت معه لمحطة سيدي جابر!!

كان الكتاب مجرد هدية من كاتبه، والكتب المجانية رزق!! رزق لا يقدره إلا القلائل من أمثالي، ممن يقرأون المُهدى إليهم من الكتب، بل وأحرص على ذلك، فلابد وأن هناك دافع كبير قد دفع مؤلف الكتاب لإهداء كتابه للآخرين، وأبسط تلك الدوافع أنه يريد إيصال كلمته المكتوبة التي بذل فيها جهدًا إلى الناس، ويريد كذلك إدراك رأيهم فيما كتب، وكل هذه أهداف مشروعة في زمن عزت فيه الوسائل للوصول إلى القاريء حتى بعد نشر الكتاب، إلا بوسائل أخرى ربما تكون غير مشروعة !!

"نحن في هذه الحياة من أجل شيء يجب أن نفعله، من أجل حلم يجب أن نصل إليه، فإن لم تفعل ذلك وتصل إلى هذا، اعلم أنك لم تعش ولم تكن موجود"[١]

هناك لحظات في حياة المرء قد يحتاج فيها إلى إعادة ترتيب الأوراق، بعد أن يستشعر ذلك الملل وقد نجح في تثبيط همته، وما أقسى أن يدرك الملل نجاحه في إفشال المرء منا، فكل ما تفعله هو عبث في عبث، واللعبة التي لا تمتلك فيها أوراق اللعب ستصبح أنت الذي يُلعب بك فيها، فلا بأس من أن تحمل أوراقك الأخيرة وتذهب بعيدًا، أن تغرق بين الناس في القطارات، صخب وجلبة تلهيك هنا وهناك، كل يبحث عن حلمه الضائع ويصفق أو يصفر له لا فرق، قد تتمهل الأحلام في ترحالها لكنها لا تنتظر أبدًا .

مازالت كلمات ابنتي الصغيرة ترن في أذني ..

- لماذا كتبك كثيرة هنا في البيت وليست في المكتبات ؟!

---

[١] من كتاب حلم الوصول لنرتقي – مصطفى عزت

أسئلة موجعة، لكن الصغيرة لن تستوعب الإجابة، أنا شخصيًا لا أفهمها ..

- أهديتها لكثيرين يا نور !!

لا يجب أن يشتروها، بل يأخذوها مجانًا، لكنهم لم يقرأوها !!، لماذا أقرأ أنا للآخرين ويلحون في الطلب، وهم لا يقرأون؟!، يلتقطون الصور بجوار الكتب فحسب، ربما لا أجيد فن الإلحاح، قطار أحلامهم سريع ولا يقف في محطتك، لن تنال منه إلا ذرات غباره لتغبر بها جبينك !!

استغرقتني صفحات الكتاب، يتحدث عن التفاؤل وعن الأنا .. حتى تحقق ذاتك يجب أن تعترف بنفسك أولا، ثم تحسن الاختيار، لكن ماذا عن الإجبار؟، قد لا يقف قطارك في محطة تريدها، وقد يتم تخزينه وحيدًا حزينا وهو ينظر للتوربيني وهو يمر في لمحة بصر، لن تصل في موعدك أبدًا مهما استيقظت مبكرًا، هل تشعر بالظلم .. هل توازن بين قلبك وعقلك .. هل أعددت نفسك للخروج من النفق المظلم .. هل يمكنك وضع كل شيء في محله .. هل علمت مواطن القوة والضعف .. هلا نظرت إلى من هم حولك قليلًا ؟! هل مازلت على همتك ؟!

نور ماتزال .. وأخذت الكتب وبدأت في القراءة والتلخيص، لديها من الهمة ما يكفيها لمواصلة السعي، تذكرت ما قالته لي ذات مرة وأنا جالس على شاطيء البحر أترقب الموج المتدافع، عله يأتي بخير..

- وليه ما أفوزش يا بابا .. ربنا ممكن يخليني أفوز عشان تعبت
- ربما يا نور، ربما ..

ما زال الكتاب في يدي وأقلب في صفحاته، أجلس في ردهة فندق استقطع مكانه من الكورنيش المكتظ، فئة من المجتمع اختصت نفسها بكل شيء، ولم تترك للباقين إلا الفتات، يتخطفونه كل يوم أمام أعينهم بينما تتعالى الضحكات، وربما الرقصات، الوجوه التي أمامي تتحدث بالنعمة، أعطاهم الوطن كثيرا لكنهم لم يرضوا عنه أبدًا، فاقتصوا النعمة لأنفسهم وقتروا على غيرهم في العطاء، فقهروا اليتيم ونهروا السائل، لكنهم ظلوا يحدثون بالنعمة!!

يحيطون بي من كل اتجاه، عيونهم تتسائل ما الذي أتى بك إلى هنا؟ .. هنا فقط لمن يحمل "الكارنيه"، أتيت مع أحدهم ممن يحملون الكارنيه، يموت صاحب الكارنيه ويبقى الكارنيه من بعده، وبكامل صلاحياته، لا بأس من متابعة القراءة .. يتحدث الكاتب عن الصداقة .. أتت في موعدها .. فلولا الصديق ما جلست هنا، فلنقرأ الفاتحة لروح من أورثه كارنيه هذه الفئة الناجية من العذاب في فنادق الدرجة الثالثة .

"مع صديقي اليأس .. كان اليأس معي، وتحدثنا طويلًا، شعرت أنه يريد أن يريحني من الحياة، بعد أن أحس بالضعف في عيني، واستسلامي، تملكني وظل يطرق على رأسي، حاولت مقاومته لكن ضرباته كانت قوية، شعرت بأن رأسي انفجر"[١]

بليغ هذا التصوير لليأس، لن يشعر به إلا صديق صدوق له، لا يخلفه موعدًا أبدًا، ربما يأتي مع تدخل عابر من أحد المحيطين بي، يبدو ممتلئًا في

---

[١] حلم الوصول لنرتقي

لباسه المدني، لكنهم ينادونه هنا برتبة كبيرة، تقدم مني وتعجب للكتاب وعنوانه "حلم الوصول"، وهل الوصول يحتاج إلى حلم، هو يحتاج فقط لكارنيه، وبالتأكيد لا يحتاج لقراءة كتاب، ربما يحتاج للقبض على الكتاب، فقد سحبه من يدي بخشونة الرتبة وبود من يريد المعرفة ..

- حلم الوصول لإيه ..؟
- لنرتقي
- نَتَرقَّى ..
- نعم، نترقى ، تنمية بشرية
- تبع "الإتش آريعني" !!

وضحك، وضحكت أنا كذلك، لم أكن لأصل لهذا الإيجاز البليغ في التشبيه أبدًا، ولو حرصت، لكني أوشكت على إنهاء الكتاب وكاتبه ينادي ويقول .. يا حلم، فقلت معه .. يا حلم، حتى طالعني إعلان كبير علقوه على شاطيء البحر، إعلان تأييد للرئيس الذي يصارع نفسه في الانتخابات، نفاق لم يَرُق لي، فكدت أن أصرخ وأقول مرة أخرى .. يا حلم .. إلى أين أنت ذاهب ؟!

لكن رن جرس هاتفي المحمول، واهتز بالفرح، نور تتصل وتقول ..

- بابا أنا فزت!! .. سأذهب إلى القاهرة للتكريم
- لعله الله يا نور .. لعله الله !!

تمت

(٩)

# ألم♣

رد أخيرا على إلحاح اتصالي، صار لي أكثر من عشرة أيام وأنا ألاحقه، ضعيفة هي الغايات دوما إذا ما ووجهت بتوحش أولئك الذين يمتلكون العصا السحرية لتحقيقها، لكن هل صار علي أن أرود تلك الوحوش ؟! من أجل الحصول على لقمة عيش!! لكل عصر أدواته على كل حال، وها نحن قد وصلنا لمرحلة تخطف الطعام الساقط من الأفواه المكشرة عن أنيابها الحادة

"احمل أوراقك .. اذهب فورا إلى هذا العنوان .. قابل هذا الشخص سيساعدك"

قالها بلهجة آمرة، تتغلف حتما بكثير من العطف والتأسي، أبدو أمامه كطفل لا يعرف مصلحته أين، إذًا لا مفر من الذهاب، الأطفال لا يجادلون بل يسمعون الكلام فحسب، مكثت طويلا في البيت، إعلانات الوظائف الخالية على الإنترنت أصبحت بلا طائل، تجعلك تنتظر وتنتظر، أغلبهم نصابون محترفون، يوهمونك دوما بالتوظيف ولا يقدمون لك إلا مطالباتهم بالمال، ضعف الطالب والمطلوب، علمت يقينا أن الوظائف لا تأتي هكذا، مجرد رسالة ترسلها من فوق مقعد وثير مع سيرة ذاتية مبهرة، أغلبها تباع جاهزة في المكتبات حاليا، تتسع الدنيا للأحلام لكن تضيق الغرف على من يحلق بجناحيه يطلبها، ربما تتهشم رأسه في السقف أو الجدران، لم يعد هناك من

---

♣ في نوفمبر ٢٠١٧

يقرأ تلك الأوراق ولو صدق مرسلوها، يجب أن تبلى قدماك من الزحف على أعتاب المكاتب، مع كثير من التوصيات والاستعطافات، حتى الملل من تكرار نفس الشيء مرات لا تحصى قد صار ترفا،ولا يجب التمتع به .

الوقت طويل جدًا في الطريق إلى العاصمة، رغم أن المسافة لا تتعدى الساعة بالسيارة من مدينتي الصغيرة، لكنها تبتعد في كل يوم أكثر وأكثر، كل الوظائف موجودة هناك، لكن من الذي يظفر بتلك المأدبة العامرة، لم تُبق العاصمة الشرسة شيئا من بقايا مائدتها للمدن الصغيرة، ثم تعود وتعاني من الزحام المتكتل على الأبواب !!

صار لنا أكثر من ساعتين ولم نصل بعد لمشارف المدينة الكبيرة المرهقة بكثرة الزائرين، رغم براعة سائق الميكروباص التي تجاوزت كل مهارات لاعبي الأكروبات، حتى يمرق من أماكن الاختناق على الطريق السريع، عفوا .. الذي كان سريعا يوما ما، يجب أن أصل مبكرا بقدر الإمكان، هذا الشخص لن ينتظرني كثيرا بالقطع، وإن لم يكن مشغولا كما سيدعي، يظن البعض أن مقدار أهميتهم تزداد عادة بادعاء الانشغال !!

عنواني الذي أبتغيه يقع في أحد أرقى أحياء العاصمة، ربما هو أرقاها على الإطلاق، منطقة نائية هادئة لا تصل إليها المواصلات العامة، يتحتم على أن أستاجر سيارة أخرى ضمانا لسرعة الوصول، سائقوا التاكسيات هنا يحاسبون الراكب برقي المكان لا بزمن الوصول أو المسافة المقطوعة، لكن لا بأس، عليَّ الدفع مقدما على كل حال، كان يمكنني إرسال الأوراق بالبريد الإلكتروني، لكن ما أسهل إلغاء تلك الرسائل بضغطة زر، أراحتهم

التكنولوجيا الحديثة من عناء فرم الأوراق قديما، ربما يصيبهم بعض الخجل فينظروا فيها هنيهة قبل أن يفرموها أمامنا !!

أمتلك من الخبرة ما كان يغنيني عن كل ذلك، لكنها الدنيا التي تغيرت أحوالها، صرنا نعمل يوما ونتعطل عشرا، طالما لم ننجح في تعليق رقابنا في نير الحكومة الذي صار يتدلل، قرارات الاستغناء من أصحاب الأعمال لم تعد محلا للنقاش في تلك الأيام، تُوقع عليها قبل استلامك للعمل، قرار تعيينك مشمول بقرار فصلك، مع كثير من الأسى وتطييب الخواطر، بل والتأكيد على مدى كفاءتك التي لا يحتاج لها العمل حاليا، ولا تقطع الاتصال بنا مستقبلا فربما .. ربما نرد عليك !!

عاودتني الآلام في جنبي الأيمن مرة أخرى، ليس هذا هو وقتك أيتها السمجة، سوء الحظ صار يرافقني كظلي، تناولت حبة دواء لتسكين ذلك الألم هذا الصباح، كنت أترقبه ولا أريده أن ينغص علي مهمتي، لكنه الآن يزداد، ربما أحتاج لتلك الحقنة التي تسكنه تماما، لكني أستسلم بعدها لنوم عميق، ما العمل إذًا في تلك الورطة، أنا على مشارف الوصول لمبني الشركة التي سأقدم فيها أوراقي، يبدو فخما وكبيرا من بعيد، تغلفه الشمس بأشعتها الذهبية التي انعكست من زجاجه الأزرق اللامع، هل يمكن أن أتراجع بعد أن وصلت إلى هنا، ربما تكون هذه هي الفرصة الوحيدة، علي أن أخفي معاناتي من تلك الآلام، ليس هناك بد من تناول حبة مسكن أخرى، فهذه الشركات لا تقبل إلا الأصحاء .

تناولت حبة كنت قد أحضرتها معي على سبيل الاحتياط، هو المرض ونذالته التي لا تؤتمن أبدا، دخلت إلى مبنى الشركة وأنا أستجدي أثر الحبة المسكن أن يسري في جسدي المرهق، أشعر كأن سكينا تسرح لتقطع في جنبي، الألم هذه المرة هو الأشد قسوة على الإطلاق، لكن الأقسى منه كانت نظرات أفراد الأمن الذين استوقفوني على الأبواب، ولاحقوني بالأسئلة، لكن ثبتت براءتي والحمد لله وتأكدوا أنني لست من أولئك المتطفلين على المكان، من الباحثين عن عمل! فهناك من أعرفه بالداخل ليسمحوا لي بالتطفل .

دخلت من الباب مسرعا، فربما تراجعوا في قرارهم، حتى وصلت لمكتب المسئول الكبير، أكاد أكز على أسناني لأكتم الألم الذي استباحني تماما وصار ينخر في داخلى، خفت أن تتهور حنجرتي وتطلق أي زفرة بآهة منفلتة، يبدو أن سفاحا قد استقر في بطني وصار يبرطع فيها بسكينه الحاد بلا شفقة أو رحمة، ليس أقسى من الألم إلا أن تكتمه بنفسك كتمان النيران في الأتون.

لم تفلح السكرتيرة في كشف آلامي التي أخفيتها بمهارة لم تدم طويلا، فقد ردت على باقتضاب تغلفه ابتسامة بلاستيكية مصطنعة، سيادته قد انصرف توا لأمر هام، ولن يعود قبل ساعتين، عليك أن تنتظره إن أردت، فأفلتت مني آهة مكتومة لاحظتها هي بعين متسائلة، فزعمت أنه إرهاق السفر، فأنا قادم من طريق طويل !!.

صار على الآن أن أنتظر، مع كل هذا الألم يجب أن أنتظر، هل هو مكتوب عليَّ الانتظار لأحتمل ألمين، ألم الانتظار وألم كتم الآلام، صرت أحوج للخلاص من الحياة حتى أتحرر من أسر ذلك الطوق الذي يحرص أن يخنقني، لكنه أحرص كذلك أن أظل على قيد الحياة لأظل في قيده، معلق أنا برقبتي في أحبال الأمل فوق هوة يأس سحيقة بلا خيار.

حاولت أن أشغل نفسي بتقليب بعض الجرائد والمجلات، أتلوى لا إراديا من الألم، تلحظني السكرتيرة كل فترة، آلامي لا تخفت أبدا، بل تزيد، ذهبت لدورة المياه مرات، هنا ألم وهناك آلام، سألتني السكرتيرة هل أنت بخير، قلت لها بالقطع أنا بخير، إنه فقط إرهاق الانتظار بعد السفر، مرت الساعتان كدهر طويل، أحسست فيهما أنني قد عدت لأيام آدم، تمنيت لو أني كنت هابيل وقد بسط قابيل يده إليَّ ليقتلني، هيا عجِّل بالقتل يا أخي، أردت أن أستريح على أي وضع كان، يبدو أنني قد غبت عن الوعي برهة، عقارب الساعة قد قفزت فجأة إلى مستقرها، ربما كان هذا هو الجودي الذي كنت أنتظره، فسألت السكرتيرة ..

- هل عاد ؟
- لم يعد مع الأسف
- متى يعود ؟
- أبلغني حالا أن لن يعود اليوم

- وأنا ؟
- يمكنك أن تأتي غدا لمقابلته

يمكنني أن آتي غدا، هذا أفضل على كل حال، فحملت أوراقي وآلامي، وأطلقت زفرة ألم أولى، زفرة كنت قد كتمتها طويلا !!

تمت

(١٠)

# شَرْوَة♣

لم تتوقف السماء عن تعبئة شوارع المدينة بالأمطار، إلا منذ ساعة تقريبًا، صار لها أكثر من يومين لم تنفك فيهما عن إلقاء ذلك الخير للناس، هكذا يطلقون على المطر في هذا البلد الذي لم يعرف أبدًا طريق الانتفاع بذلك الخير، إلا أن تتحمل الأحذية منه بأكوام من الوحل وهي تغطي الشوارع، وعلى الكل أن يغوص فيه، حتى يصل بصعوبة إلى مبتغاه .

كان حتما علي أن أذهب إلى السوق، حتى اللقيمات الصغيرة الباقية قد التهمناها لالتماس بعض الدفء في ذلك الطقس البارد، ثارت أمعاؤنا الخاوية ووقفت احتجاجا واحتياجا لقطرات من أي حساء ساخن، عسى ألا تفرغ حال إعداده اسطوانة الغاز التي صرنا نعاني الأمرين في الحصول عليها، لم تبق إلا جنيهات قليلة والشهر لم يشرع بعد في حزم أمتعة الرحيل، ماذا عساني أن أفعل وأنا في نظر الكثيرين امرأة مستورة، امرأة تلقى من الجميع كل تقدير واحترام، لكنها البطون التي لا يملؤها أعلى تقدير، ولا يسكت أنينها أسمى احترام، حرَّاقة صارت هي الحياة في تلك الأيام، لم يبق فيها لملح الأرض إلا الذوبان في ذلك الطين الذي انتشر في كل مكان .

---

♣ في سبتمبر ٢٠١٧

لا مفر إذًا من الخوض في ذلك الطين، ولو تشقق حذائي الجلدي الفاخر القديم، نفحة غابرة أحتفظ بها من بقايا الستر القديم، ما تزال تناضل لتخصف أجسادنا التي تمزقت وتعرت حتى العظام، كنا أول من سكن هنا، ضاحية نائية وهادئة رغم أنها تبتعد كثيرا عن المدينة، لكنها ترقد مثلها بجوار البحر، وتنخفض بشوارعها دومًا عن مستواه، فتظن بأن البحر سيغرقها بلا رحمة يومًا ما، ومع ذلك، فالشوارع قد انخفضت أكثر في هذه الأيام، حتى لم نعد نرى أن لها آخر في أعماق الزحام، تبدو وكأنها تغوص وسط الأبراج العالية المنتصبة على الجانبين، كنا نرى البحر بسهولة أول ما سَكنَّا هنا، رِخص الأراضي قديمًا جعل المنطقة تمتلىء بالفيلات، لكن الأبراج المتوحشة قد أكلتها مؤخرًا، كما أكلت معها الشوارع الواسعة الخالية، خلاء ظل يغري أمواج البحر إذا زمجر في أقسى ليالي الشتاء.

صار البحر هو الذي يخاف من الشوارع، بعد أن اكتظت وكادت أن تفيض عليه بالأفواه الجائعة، طوفان من البشر أصبح يهدد حتى خلاء البحر البعيد، ليأكل كل أسماكه ويبيع جل أصدافه، ويزدرد حتى الملح الراقد فيه، فلا تعود أمواج البحر إليه إلا وهي خالية الوفاض، تمامًا كما أصبحت تعود سلات النساء البلاستيكية من السوق، كلها خالية إلا من خيبات أمل عبأتها الأيادي القصيرة قليلة الحيلة.

ليس هذا هو الوقت المناسب للخروج المعتاد إلى السوق، أغلب النساء تخرجن هنا في الصباح أو في منتصف النهار، لكنه الجوع الذي صار يستبيح البيوت العامرة، سأكون هناك أنا وأولئك النساء المعدودات على

الأصابع، أسماؤهن ظلت ترن في أذني كثيرا .. سعاد .. عفاف .. رجاء .. أي إسم لا يُهم .. هن نساء "الشروات" .. هكذا يسميهن باعة السوق، بعد أن استمرأوا النداء عليهن بلا حياء، يا لها من فضيحة يغلفها الفقر والفاقة، كنت أشيعهن قديمًا بقليل من الأسى وكثير من الامتعاض، هل ثمن زوال الستر فادح إلى حد التشهير في الأسواق، كم هو قاسٍ ذلك المجتمع الذي صار يمصمص في العظام، بعد أن أفنى لحمنا بين أنياب الآكلين على كل الموائد .

تعبأ حذائي كثيرًا بأوحال الطريق، ضاقت الأرصفة بأكوام القمامة والبضائع المتراصة رغم وابل المطر، فألقت بأقدام الزبائن الذين لا يشترون إلى الطين المتكوم فوق الأسفلت، انشغل الباعة بإعادة رص المعروضات، الرصيف الوحيد الذي ظل خاليًا هو رصيف قصر "الباشا" .. هكذا يطلقون عليه .. منذ أن صار عضوًا في المجلس الموقر، بديمومة لم تزحزحها أعاصير ثورة أو مشاهدة رئيس تم خلعه، تقف من ورائه قبيلة كبيرة من أصحاب المصالح، هو دائم أبدًا ولا يتغير، يُلقب نفسه بصوت الجماهير، رغم أن أحدًا لم يسمعه أبدًا يتحدث باسمهم، ويحرص دومًا أن يظل بعيدًا عنهم !!

يحتل قصره العالي ناصيتين كبيرتين من الشارع الرئيسي، يبدو القصر وكأنه ربوة بارزة تجثم فوق الطريق، يحتاج الصعود إليه لجهد ملحوظ، لا تستطيع أن ترى شيئًا بداخله إلا لو تسلقت السور العالي، إنما لو أفلتَّ من كاميرات المراقبة لن تفلت من كلاب الحراسة الجائعة، مياه الأمطار لا تتجمع أبدًا حول سور ذلك القصر، رغم أنها تغرق كل شيء في الشارع، تنساب المياه بنعومة من فوق بلاط "الإنترلوك" المثبت بإحكام حول السور، لتستقر في

بالوعات دائما ما تلمع، مع كم هائل من أضواء المصابيح الزئبقية المتوهجة الموضوعة على أعمدة من الزهر المصبوب، لم تترك البلدية للباشا مجالًا حتى يعترض على نقص الخدمات !!

ومع ذلك؛ لم تُفلح محاولات الباشا المستميتة لرفع السوق الكبير من أمام قصره، مخلفات السوق وعفن البضائع المتراكمة تواجه بوابة القصر الرئيسية على الضفة الأخرى من الطريق، لكل سلطة مهما تعاظمت حدودها التي لن تتخطاها أبدًا، ولو توحشت مخالبها، حرصت على مسح حذائي في بلاط رصيف القصر الوردي الغالي، كذلك كان يفعل الآخرون، الكل هنا يمسح أقذاره في بلاط الباشا، لكن عندما تترك لهم كلاب الحراسة فرصة سانحة لذلك، تغفل الكلاب أحيانًا إذا ما انشغلت بتمزيق قطعة لحم تُلقى إليهم من بقايا مائدة الباشا العامرة، فليحتمل إطعام الكلاب وأوحال أحذيتنا معًا .

أوشك بعض باعة السوق أن يرحلوا، نفدت بضائعهم رغم غلاء الثمن، ارتفع صوت أذان المغرب منذ قليل في الزاوية التي بُنيت وسط السوق، يتشح الباعة دومًا بالإيمان كما يتشدقون بالأَيمَان، يؤكدون على خسارتهم لكل زبون، لا يجد إمام الزاوية خلفه بعد التسليم في الصلاة إلا أولئك الذين لا يُلقون بأيمانهم هكذا، فتقع منهم ولا تجد إلا الطين الذي يملأ أرض السوق ويلوث أجولة البضائع، لكن لا يهم، كل شيء هنا يباع حتى الطين، كل شيء وله ثمن إلا أولئك الذين يدفعون !!

جنيهاتي القليلة لا تكفي لشراء أي شيء جيد، ولو باعوه بالخسارة كما يدَّعون، ماذا أفعل ؟ هل أعود لبيتي بسلتي البلاستيكية ممتلئة بالعوز والتمني ؟!، كذب من قال أن الأمعاء تأكل بعضها، الأمعاء تأكلنا نحن إن لم نملأها كل يوم، هي وحش كاسر يسكن في داخلنا ولا يصبر على جوعه يوما .

"تعالي يا مدام، الشروة بخمسة، كلها بخمسة"

ها هي الشَرْوَة لاحت من بعيد، خمسة فقط .. ما هذا ؟! .. تعلقت خمساته المزعومة في أذني من كل اتجاه، لتشدني منها لأنظر لبضاعته مجبورة لا مختارة، كيف عرف ذلك البائع أنني أشاور عقلي للشراء؟! يبدو أن عيناى المبتدئتان في البحث تفضحاني مع أول محاولة، كثيرًا ما كنت أدخل إلى هنا وتتعلق عيناى بالأشياء دون أن أشتري، هؤلاء الباعة يقرأون الأفكار بالتأكيد، لست من نساء الشروات حتى الآن، هل أفعل مثلهن ؟ التردد يكاد أن يقتلني، ترى هل سيناديني بعد ذلك بـ"مدام"، أم بإسمي هكذا كما اعتاد مع الأخريات .

تقدمت قليلا، لا بأس من شجاعة أحارب بها ذلك التردد القاتل، البطون الجائعة لا تعرف الكرامة، ظللت لسنوات عِدة لا أذهب لهذا السوق أبدًا، كان هناك من يحمل لي لحومه وأسماكه وخضرواته وفاكهته، قروش قليلة كنت أدفعها لحاملها كبقشيش وأنا راضية، ذهبت أيام عِزنا ودارت علينا الدنيا فطحنتنا رَحاها، صار علينا الشراء الآن بأنفسنا حتى نضمن عودة تلك الجنيهات المتبقية المتمرمغة في تراب الفصال والترجي، لم يعد هذا زمن البقشيش على كل حال، اهترأت الجنيهات من عرق الأيادي المتشبثة بها،

عليَّ أن أشتري تلك البقايا التي انتهكت من كثرة التقليب والإلقاء، لأسقط معها إلى قفص في الدرك الأسفل مع الذابل والمتعفن، فإما أن تُلقى إلينا ببخس ثمنها، أو أن تُلقى علينا بعفنها في أقرب خرابة !!

لا بأس إذًا، فلتلقها إلي أيها البائع الماكر، شروة ثمينة من الطماطم تربو على خمسة كيلو جرامات، أرهقها التقليب والتفعيص، أخذتها عنوة من يد "سعاد" هكذا ناداها البائع بإسمها، امرأة منهن كانت تترصد للشراء، كادت أن تحرقني بنظرات حقدها النارية، صممت أن تدفع أربع جنيهات فقط، يا له من ثمن بخس في بضاعة متعفنة، إنما أنا التي ظفرت بالمزاد في النهاية، غشيم يبدأ أولى صفقاته في السوق بلسعة على قفاه، هكذا روت لي عينا سعاد بنظرات شماتتها الواضحة لغلاء الثمن، حتى العفن قد وجد له من يزايد عليه، لكن يزايد أو لا يزايد هي كمية مناسبة ستكفينا لبضعة أيام، قد أعصر بعضها لأصنع منها بعض الصلصة، شيء ألون به حياتنا القاتمة التي خلت مؤخرا من كل الألوان .

"تعالي يا مدام، شروة بعشرة، كلها بعشرة"

بعض من أجنحة الدجاج المهترئة، شَرْوة دسمة بالفعل، تكفي لعمل وجبتين مع شوربة الفراخ، أشم فيها رائحة غير مقبولة، لكن لا بأس، قدأخفيها ببعض الماء المملح والخل، ثم ننعم ببعض من لحم الدجاج الأبيض، ونمصمص في العظام بعد طول انتظار، جمعت أشلاء جنيهاتها العشرة بصعوبة من كيسي، أصبح فارغًا تماما حتى من ثمن نصف ليمونة، لم تبق معي إلا رائحة الأجنحة النفاذة، انتزعتها هذه المرة انتزاعًا من بين براثن

"عفاف"، امرأة أخرى ناداها البائع باسمها، كادت أن تضربني أمام البائع وهي تصر على خطف هذه الشروة من بين يدي، ظل البائع يضحك علينا حتى تبينت لي أطلال ضروسه الباقية في حلقه، صرت عدوة لكل نساء الشَّرْوَات المشهورات في السوق على ما يبدو!!

الأكياس البلاستيكية التي ابتعت فيها شَرْوَتيَّ ممزقة جدًا، ضنَّ الباعة عليَّ بأكياس جديدة، ليس لي الحق على ما يبدو إلا في تلك الأكياس المهترئة مثل بضاعتهم، عليَّ أن أحملها بمنتهى الحرص، حتى أصل بها إلى بر الأمان في مطبخي، تلك المرأة الأخيرة التي انتزعت منها أجنحة الدجاج ظلت تسير خلفي، في الأمر شيء مقلق لا شك، أسرعت الخُطا وأنا أتلفت كاللصوص، الكيسان ثقيلان جدًا، وينضحان بماء الطماطم وبدماء الأجنحة .

عبرت الطريق المزدحم بمنتهى الصعوبة، حتى وصلت لرصيف القصر الخالي، انفتحت بوابة القصر أمامي للمرة الأولى، لا بأس من نظرة عابرة لن تضر سكانه في أي شيء، المنظر في الداخل يخلب الألباب حقا، أوراق الأشجار تلمع في النور بكل ألوان الطيف، غسلتها قطرات المطر فتلألأت تحت ضوء المصابيح الزئبقية الصفراء، زرقة حمام السباحة انعكست على واجهة القصر فرسمت عليها تموجات رائعة، حتى رائحة زهور الياسمين التي ظلت محبوسة في الداخل، يبدو أنها قد وجدت لها مفرًا أخيرا، فنجحت في الهروب من أسوار القصر إلى الشارع .

لاحت سيارة من سيارات صاحب القصر وهي تتحرك من بعيد، يبدو أن أحدهم سيخرج الآن إلى الشارع، يعرف الجميع سياراتهم تلك، أغلبها سوداء عالية عن الأرض لا يظهر زجاجها ما تخفيه، وتكاد تلتهم الطريق، تهبط نحوي من الربوة العالية في سرعة الريح، ملت عن طريقها بسرعة لأتفادى صدمتها، فتمزقت أكياسي وتبعثر كل ما كان فيها على الأرض !!

أطلقت صرخة لا إرادية، صرخة سمعتها المرأة التي انتزعت منها شروة الأجنحة، وسمعتها كل كلاب حراسة القصر، فانطلقت لأجمع شتات أكياسي الذي تناثر على الأرض الملوثة بالوحل، لم تمهلني الكلاب أي فرصة لذلك، فقد اندفعت تلهث نحو الأجنحة المتناثرة، والتقمتها جميعا بين أسنانها، ثم عادت مهرولة إلى القصر قبل أن يُغلق بابه، يبدو أن صاحب القصر لم يطعم الكلاب جيدا، فلم تبق لي إلا بقايا نباحها الذي اختلط بضحكات متوحشة من امرأة شامتة، فمسحت حذائي في بلاط القصر الوردي الغالي، بعد أن تلوث ببقايا الوحل والدماء !!

تمت

(١١)

# عشر دقائق♣

لم تنجح كل محاولاتي في قطع حديثها الدائم في هاتفها المحمول، كانت تُرقق في صوتها باستماتة، تحاول أن تبدو كعصفورة تشدو بالحب لجمهورها المخدوع في الحمام، مكان مناسب فعلا لمطارحة الغرام عبر المحمول، ونحن نصطف في صفوف المنتظرين للنتائج، بينما ترسم على خديها ابتسامات رخامية مستفزة وقاسية، من نفس نوع قساوة لوح الرخام البارد الذي تستند عليه، وتتوارى خلف نظرات عينيها المتلصصة هنا وهناك، ربما لتبحث عن صيد جديد، يبدو أن كثرة معاشرة الآلام تماما كالغرام، تورث الاعتياد وتعلم البلادة !!

لم يعد هناك بد من الانتظار، ألقت إلي الأوراق مع نظرة بلاستيكية داكنة، لم تكن تشبه الأوراق التي أعطتني إياها فحسب؛ إنما حملت في طياتها تفاصيل كثيرة، تفاصيل لم ينجح إلحاح تساؤلاتي في ملاحقة شتات بعثرتها، وإن لاحقتني رنات الهاتف الثابت التي لم تكف عن الدق في طبلة أذني، مع استمرار الإبحار في خضم الحيرة الخائفة من مجهول مترصد خلف أستار الغيب، ظللت أقلب في الأوراق ولكن دون جدوى، لم أفهم شيئًا من كل ذلك الزخم المتناثر من الحروف والكلمات، أرقام متراصة فوق بعضها بمنتهى الإهمال، وزخم من الأوراق وصور الأشعات تنوء بحمله العصبة أولو القوة،

---

♣ في أغسطس ٢٠١٥

هي لغة خاصة اعتاد الأطباء أن يتخاطبوا بها فيما بينهم، يتحاشون أن يعرفوا المرضى بحقيقة أمراضهم، رحماء يدخرون قسوتهم دومًا لساعة دفع الحساب !!

شيء مؤلم حقًا أن يتعلق مصيرك بذلك الكم المتراكم من فوضى الحروف المبعثرة، وأن تحملها بين يديك لتسيربها إلى مصيرك المحتوم ..

"احملها إلى طبيبك هناك، في نهاية الممر"

هكذا أشارت لي موظفة الاستقبال الثرثارة بيدها، استعملت كل لغات الإشارة في العالم، فلسانها المعسول مباح للكلام في محمولها فقط !!

الجو حار جدًا وخانق في تلك المستشفى، رغم أننا لم نودع الشتاء بعد، يبدو أن كثرة المرضى ترفع حرارة الجدران كما يرفع المرض حرارة الأبدان، أجهزة التكييف تناضل باستماتة كي تصل بنسماتها المتعبة إلى نهاية الممر المؤدي إلى غرف الأطباء، سرتُ وأنا أتلمس خط سير جزيئات الهواء الباردة، تتراقص أطيافها مع ضوء الشمس المتسلل من النوافذ، تبدو النسمات وقد أصابها الوهن، أكثرها تسقط مغشيًا عليها في منتصف الطريق، تُرى هل أصابها هي الأخرى ما أصابها واستفحل في خلايا كبدها؟ ولم تعد تستطيع الفكاك من أسره، هل سأصل إلى نهاية طريقي؟ أم صارعلي أن أستعد أنا الآخرللسقوط في منتصف الطريق .

غرفة الطبيب تقبع في نهاية الممر، هي النهاية على كل حال، لا أدري إن كان ينتظرني أم أنه اعتاد ألا ينتظر الجميع، مرضى كثيرون يتركونه ولا يعودون إليه مرة أخرى، أكثرهم يلقي بأوراق التحاليل المطلوبة إلى سلة

المهملات، أحيانًا يكون الاشتباه في وجود الشيء أفضل كثيرًا من التأكد من وجوده، طالما أن النهاية محسومة في كلتا الحالتين، فلا جدوى إذًا من فعل شيء ثمنه مدفوع مدفوع تحت أي ظرف، ولو كان الدفع سيتم بواسطة الورثة !!

لم يكن لدى حتى رفاهية هذا الاختيار، كان على أن أعرف النتيجة أيًّا ما كانت، وليس هذا فحسب، إنما يجب على أن أحملها بنفسي إلى عملي، ربما أتسلم قرار فصلي بعدها، مع شديد الأسف لذلك !!، فلقد خرجت من قائمة "لائق" التي تستقر في شئون العاملين، وتصدرت قائمة "غير لائق" التي تقبع مدفونة في الأرشيف، يكفيهم فقط دخولي دائرة الاشتباه لإعفائي، صرت مصدرًا للعدوى وعدم اللياقة في مكان لا يبذل أقصى ما في وسعه إلا لإصلاح الآلات الصماء، أما البشر فمن السهل استبدالهم، ربما لأن الآلات لا تشتكي أبدًا إلى أن تموت!!

أصبحت مرشحًا للموت على كل حال، وتفصلني عن إعلان تلك النتيجة، عشر دقائق لا أكثر.

هكذا قالتها الممرضة التي حملت أوراقي إلى الطبيب ..

- عشر دقائق فقط .. فالطبيب مشغول بحالة أخرى

حالة أخرى ستعرف الحقيقة، ربما لتلقي بأوراقها مثلها مثل غيرها إلى سلة المهملات، أكباد أكلتها الأشعات والتحاليل والتقارير والمسكنات، قبل أن تأكلها الفيروسات، وبطون تضخمت خلف جلود شحبت وأوشكت أن تختفي خلف العظام، وعيون جحظت وكادت أن تترك مآقيها وهي تنتظر نتائج

تحاليلها غير المؤكدة، ليس هناك شيء مؤكد في هذا العالم المشبع بغازات التخدير وروائح المطهرات، إلا أنك لن تستطيع فيه إلى العلاج سبيلا !!

لكن لا بأس من المحاولة، فحلاوة الروح يجب أن تمر على نيران الانتظار، مثلها مثل أي حلوى صنعت لتحلو معها الأيام، ثم تقطعها السكين وتطحنها الأسنان في النهاية، وها قد حانت النهاية ونادت علي الممرضة ..

- ادخل إلى الطبيب لتعرف النتيجة ..

هل كان حتمًا أن تنادي علي بمثل هذه السرعة، كنت أريد دقائق أكثر من الجهل بالشيء، الذي هو خير من العلم به على كل حال !!

مجرد دقائق أخرى إضافية قد أحيا معها في جنة الشك، قبل أن أحمل تقريري بيدي مدعمًا بالأختام الزرقاء والحمراء إلى نار اليقين .

كلما تقدمت قدمي خطوة واحدة إلى الأمام .. تعلقت فيها خطوات تشدها شدًا إلى الخلف، نظرات الطبيب لا تتابعني ولا تشعر بوجودي، على الرغم من أنه يضع نظارة سميكة ليرى الجميع من خلف عدساتها، ملامحه لا تدل على أنه سوف يزف إلى خبرًا سعيدًا، قد لا يعلم أن كل الأخبار التي سيسوقها إلى سواء، إلا أن يؤكد لي أنني سأموت قريبًا !!

لم يقل أي شيء على كل حال، فقط أعطاني مظروفًا مغلقًا ..

ثم قال لي :

- حالتك تحتاج إلى مزيد من التدقيق، يجب أن تتناول جرعات من هذه الأدوية، ثم تعاود المرور هنا بعد شهرين، ستجري نفس هذه

الفحوصات مرة أخرى، ثم نحدد بعدها ما إذا كنت ستستجيب للعلاج أم ...

قلها يا طبيب ولا تخف، أم ستموت

- ربما تستمر على هذا العلاج لشهور عديدة، لكن لا تقلق، فلديك تأمين صحي شامل !!

قلت له:

- وهل ستصبر الشركة عليَّ ...، كل تلك الشهور العديدة ؟!!

تناول المظروف مني مرة أخرى، وختم عليه بخاتم أحمر

وقال لي:

- هذا تسلمه لإدارة الشركة مغلقًا

كان علي أن أخرج من عند الطبيب بسرعة، فقد دخلت إلى الغرفة حالة أخرى، حالة ستحتل مكاني في دائرة القلق، غابت الشمس عن نوافذ الممر، خنقتها السحب الرمادية التي اصطبغت بلون أحمر قانٍ، يبدو أن كبد السماء قد صار يعاني هو الآخر من الوهن !!، صار الهواء كله مشبعًا بالغبار، وبدا الممر أقصر من ذي قبل، وهواء المكيف صار أبرد، لم يعد أمامي أي باب مفتوح، كل الأبواب صارت مغلقة في الممر، إلا باب الخروج، وبجواره سلة المهملات، فألقيت فيها بالمظروف وخاتمه، وأسرعت لألحق عشر دقائق أخرى، بدلًا من تلك التي ضاعت مني مع الطبيب !!

تمت

(١٢)

# طربوش جنابك!! ♣

لا أدري ما الذي انتباني هذا الصباح، فقد صحوت من الفجرية رغم أنني لم أسمع أى ديك يؤذن للبكور، فالديكة في الغربة تتأخر عادة في هذا اليوم لما بعد الظهيرة، ربما لعدوى أصابتها من بني الإنسان الكسلان في يوم الأجازة، ولن تستطيع أن توقظه أصوات ديكة أو حتى منبه يتراقص حتى يموت مصطدمًا برأسه في الحائط .

ورغم أن اليوم هو يوم جمعة، والتأخير فيه خير من التبكير، لكن حكم العادة قد يغلب الكسل والبلادة، وصارت سقسقات العصافير أكثر إزعاجًا لي من صوت الشخير، فهرعت لفتح الشباك لتلفحني نسمة هواء باردة مشبعة بالندى، سقطت إحدى قطراته الباردة على رأسي المحلوق حديثًا، ولم يبق فيه الحلاق التركي أية بقايا من شعر، فقد جزه لي جزًا حتى لم يعد في مقصه حدٌ يحلق به رءوسًا أخرى .

ومنذ أن رأيت ذلك الحلاق التركي الذي صار يتكلم بلغة أهل البلد، بل ويجيدها ربما أكثر من كثير من أهلها، وقد بدأت تطاردني خيالات (طربوشية) تركية غريبة، فقد تذكرت الطربوش التركي الأحمر "أبو زر"،والذي ورثناه قديمًا عن الأتراك العثمانيين، والذي لم أدرك أنه كان أحمر اللون إلا بعد

---

♣ في أغسطس ٢٠١٣

ظهور تلفزيونات (التكني كلور)، فقد كنت أظنه رماديًا كالحًا، منذ أن طبقه"فؤاد المهندس" لـ"عبد التواب النمساوي" امبراطور عماد الدين في المسرحية الشهيرة، حتى لبسه "سليم باشا البدري"وكان أحمرًا فاقع اللون في مسلسل "ليالي الحلمية"

"قرر الرئيس محمد حسني مبارك تخليه عن منصب رئاسة الجمهورية، وكلف المجلس الأعلى للقوات المسلحة لإدارة شئون البلاد، والله الموفق والمستعان"

لم يتركني هذا الطربوش منذ إعلان ذلك البيان، حتى صار يزاحمني في كل شيء، فأصبحت لا أكاد أفتح التليفزيون وأبدأ في مشاهدة أي قناة، حتى أرى كل المذيعين والضيوف وقد لبسوا جميعًا طرابيش، وصار كل صاحب زر منهم وهو يتكلم يداعب من حوله ممن يسمعونه على مضض، وهم يتمايلون من حوله زرًا زرا، ثم تداعب الزرازير زره وهو يتظاهر بالسماع ويتمايل هو الآخر بامتعاض، ثم أرى طربوشًا منتفخًا ويكاد أن يتمزق، لكن على الفاضي، وطربوشًا آخر مضبوط الحجم ومنضبط، لكنه صب وجاهز ولا يمكن لأحد أن يطبقه حتى ولو جلس عليه، وطرابيش قديمة وكالحة، وطرابيش جديدة لكنها لا تسوى، وطرابيش جوخ من الأصلي، وطرابيش نايلون من (المحزق)، وطرابيش صيني مضروبة، وطرابيش من بره هالله هالله ومن جوه يعلم بها ربنا، لكنهم جميعًا يشتركون في كونهم كلهم مجرد طرابيش!!

"نعم للتعديلات الدستورية، يجب أن تدور عجلة الإنتاج مرة أخرى، إنهم يريدون أن يحذفوا الشريعة من الدستور الجديد، سنصبح أمة كافرة، صوت بالموافقة من أجل دخول الجنة"

حاولت كثيرًا أن أتخلص من هذه الحالة الطربوشية التي سيطرت على عينيَّ، فانتقلت بعدوى فجة لرءوس الآخرين، لم يفلح معها فنجان شاي من النوع الفتلة، ولا حتى متبوعًا بكوبٍ آخر من النوع الثقيل الحبر، حتى اكتشفت أخيرًا أنني لم أنظر لنفسي في المرآة منذ أن فارقت صالون الحلاقة، بعد أن فجعت في مرآته من منظري الأقرع، فأسرعت لمرآة الحمام التي ظلت مغطاة ببخار الماء الساخن، فمسحت المسحة الأولى بيدي الباردة، فلطمتني المفاجأة الكبرى على قفاي، فقد رأيت رأسي أنا الآخر وهي تحمل طربوشًا أحمرًا بلون التفاح الأمريكاني، وكان معوجًا على جنب كما طربوش المطرب "صالح عبدالحي" وهو يغني "ليه يا بنفسج"، فأيقنت بأن الحالة قد تعدت الحد معي، وصرت على أعتاب مستشفى الخانكة !!

"إنهم يريدون عودة فلول النظام السابق، الإسلاميون يكسرون عظام بعضهم، والليبراليون لا يجتمعون على مرشح واحد"

مددت يدي لأخلع ذلك الطربوش اللعين، لكن دون جدوى، وكأنه لم يكن موجودًا فعلًا، رغم أنني كنت أراه رأى العين، يبدو أن القصة قد دخلت معي في مرحلة جنون فعلي، أو في كوميديا فجة مثل أفلام "اسماعيل ياسين"،

ولم يبق لي إلا أن أدعك في الطربوش فيخرج لي العفريت وهو يربع يديه ويجلس القرفصاء، ليعلن لجنابي "شبيك لبيك"

"تغير الرهان الآن، الضرورات تبيح المحظورات، يجب أن نعصر الليمون"

الإجابة هنا ليست صعبة، فما يجب عليَّ أن ألبسه الآن لن يكون أبدًا من اختياري، هو اختيار الضرورة، واختيار الضرورة هو الإجبار بعينه، ويبدو أنني قد لبسته بالفعل، طربوش أحمر وله زر يتمايل كثيرًا، ويبدو فوق رأسي ويراه الجميع حتى العفريت الذي ظل يضحك ويضحك، وينتظر أن أدعك له في الطربوش مرة أخرى ليظهر ويقول "طربوشك وبين يديك" تلبس إيه ؟!!

"إن هذا الشعب لم يجد من يحنو عليه، أو يرفق به"

عمومًا يضحك العفريت أو لا يضحك، المهم أنني قد لبست الطربوش والسلام، والمصيبة أنني لا أستطيع خلعه مرة أخرى، والمصيبة الأكبر أنني لا أستطيع أن أطلب من أحد أن يخلعه لي، لأن المصيبة الكبرى أنني لن أعترف أنني قد لبسته، فالكارثة أنه رغم أن الكل يلبسون طرابيش، لكن أحدًا منهم لن يعترف أبدًا بلبسه له، وسيسخرون فقط من طربوشى أنا، على اعتبار أنني أنا الوحيدالذي لبس طربوشًا فى البلد، ورغم أن البلد كلها تلبس طرابيش حاليًا،لكن من هذا الطربوش الذي سيعترف بذلك ؟!

يبدو أن موعد العودة للوطن قد حان، فلبس طربوش مثل هذا في الغربة مؤلم حقًا، فمن الصعب أن يراك الغرباء بعد أن كنت ترفع رأسك عاليًا، ليراك وأنت تطأطيء رأسك مرة أخرى لترتدي طربوش جنابك هذا الكبير!!

تمت

(١٣)

# باب اللّه♣

كان ماء الوضوء يتساقط من جبهته الباردة، وهو يتمتم بالدعاء، لعل الله يجعل له في صحبة كل قطرة تسقط منها، سيئة تسقط عن كاهله المثقل بالذنوب، حتى أذَّن المؤذن لصلاة الفجر، فخرج من منزله بخطوات منتظمة تصاحبها التكبيرات، ويرددها خلف المؤذن متأملًا في زيادة الثواب .

الشوارع خاوية كالعادة، والشبورة المائية تغطي كل شيء، كان الجو باردًا ولفحات الرياح تفت في العظام، فهناك نوة تجتاح تلك المدينة الساحلية الكبيرة، لكن كل هذا لم يكن ليمنع "مصيلحي" من الخروج، فلم يكن للشيطان أي سلطان عليه،خصوصا في تلك الساعة بالذات، فلم يفلح الشيطان في منعه من الخروج لأكثر من ثلاثين عامًا، حتى تحولت معه صلاة الفجر جماعة في المسجد إلى عادة، وكثيرًا ما كان يدعو في صلاته، بألا يقطع الله له عادة!!

طريق "مصيلحي" إلى المسجد، هو نفسه ذات الطريق إلى عمله، فرصة أكرمه الله بها لكي ينال الثواب من الجانبين، هكذا ظل يعتقد وهو في طريقه للعمل الذي اعتاد الذهاب إليه بعد أن ينتهي من صلاة الفجر في المسجد العتيق، والمواجه مباشرة للمبنى الحكومي القديم المتهالك الذي يعمل فيه،

---

♣ في يناير٢٠١٣

فقد كان حتمًا عليه أن يكون أول الحاضرين لمقر العمل، قبل كل الموظفين، وأن يكون كذلك آخر المنصرفين منه، بعد انصرافهم جميعًا .

وصل إلى المسجد فوجد بابه مواربًا، لم يتعجب من ذلك الأمر، هذه عادة لم تنقطع أيضًا، ويفعلها "عبدالغني" خادم المسجد الذي يبدأ في تبادل القفشات معه، قفشات يسعد بها كل منهما، فهذا يوارب باب "بيت الله" في وجه القاصدين، وهذا يغلق باب "فرج الله" في وجه الطالبين!!

لم يكن عبد الغني يرد على مصيلحي، إلا بجملة واحدة في كل مرة، ويؤكد له بأن باب الله مفتوح دائمًا، حتى ولو كان باب بيته مواربًا، فما على قاصده إلا أن يدفعه ولو بيد واحدة، ليُفتح له على مصراعيه، حتى ولو حاول منع ذلك شيطان مريد، أما مصيلحي فكان يؤكد أنه هو من يفتح باب فرج الله!! أمام وجه طالبيه، بعد أن أغلقته الحكومة، فليس على طالبه إلا التوجه إليه في "الكانتين"، ليجد ضالته بمشيئة الله وبنفس مصيلحي معه، الذي يصر كذلك على أنه المسيطر والمتحكم في كل أمور المصلحة التي يعمل فيها منذ زمن طويل، رغم أنه لم يكن أكثر من مجرد ساعٍ فيها!!

ولا يعتبر مصيلحي أن لهؤلاء البهوات، من الموظفين الجالسين خلف المكاتب أي دور، إلا في تعطيل طلبات ومصالح الناس، وأنه لولاه هو لما أنجز أي مواطن طلبًا من المصلحة، وما يكاد مصيلحي ينتهي من صلاة الفجر، حتى ينصرف قبل الخمسة عشر مصليًا الذين حضروا للصلاة في المسجد، والذين يتناقصون يومًا بعد يوم!!.

وبعد أن يودع صديقه اللدود عبدالغني، المترصد له دائمًا بالقافية والنكات، يتوكل على الله ويُشمر ذراعيه إلى المرفقين وسرواله إلى الفخذين، فأمامه من العمل الكثير في المصلحة التي يتجه لبابها مباشرة ويفتحه، ويتركه كذلك مواربًا كما باب المسجد، وسط ضحكات عبدالغني الذي يطل عليه، وهو يغلق باب المسجد بعد انتهاء الصلاة.

يبدأ مصيلحي في ملء البراد الألمنيوم الكبير بالماء، لزوم الشاي وخلافه، ويتركه ليغلي على نار هادئة، يكون خلالها قد انتهى من كنس الحجرات وتلميع المكاتب، وترتيب الملفات والأوراق المتناثرة، ثم يرجع سريعًا إلى مكانه الذي سيرابط فيه بقية اليوم، في دورة مياه الجمهور، بعد أن استقطع جزءًا كبيرا منها، وتحولت بقدرة قادر إلى "كانتين" عامر بالمشروبات الساخنة والباردة، وأكياس البسكويت والكيك وغيرها، وعلى ترابيزة كبيرة بها درجان كبيران ممتلئان بالدمغات والملفات والورق والأقلام الجاف يبدأ مصيلحي يومه في تلقي الطلبات من الزبائن !!

وزبائن مصيلحي في الكانتين نوعان، نوع يأتيه مباشرة وهذا يعرف ما يريده، ونوعٍ آخر يجلبه مصيلحي بنفسه من أمام المكاتب، فهو له قدرة غريبة على أن يرى خيبة الأمل في عيون كل خائب، بعد أن يهم بمغادرة المصلحة وقد رُفض طلبه، وتحطمت سفينة آماله على صخور مراوغة الموظفين الجالسين خلف المكاتب، والذين دوخوه السبع دوخات، فما بين هذا وذاك يتوه صاحب الطلب ما بين دروب لا يعلمها إلا خبير، وهنا يظهر له ذلك الخبير، فيظن أنه

قد وجد ضالته المفقودة بين هؤلاء الضالين، عندما يصطحبه الخبير مصيلحي إلى الكانتين!!

وهناك يستقبله كما نسمة عصاري، تمر على جبهته المعروقة في حر صيف قائظ، ويسحب له كرسيًّا بجوار براد الشاي الذي يغلي، كما يغلي صاحب المصلحة من كثرة اللف والدوران، فيقدم له مصيلحي كوبًا من الماء البارد، ليبل به ريقه الذي جف، ويطمئنه بأن كل شيء له حل، وأن كل إدارة في المصلحة ولها سِكة، بعد أن يسأله عما كان يريده، ولمن من الموظفين بالضبط قد توجه، وكيف أنه كان يجب عليه أن يتوجه للأستاذ "عبدالعاطي" بدلًا من الأستاذ "عبدالراضي"، ثم يناوله كوب الشاي الذي لم يطلبه والحساب يجمع، بعد أن يأخذ منه كل الأوراق، ومعه ثمن الشاي الذي لن يشربه كل من عبدالعاطي وعبدالراضي للموافقة على طلبه، ثم يغادر الكانتين وهو يقول له عبارته الأثيرة

" باب فرج الله مفتوح"

حتى يعود له بعد دقائق قِصار، كان قد طلب منه فيها أن يقضيها في الاستغفار، ليدخل عليه والابتسامة تزين وجهه الذي تعلوه علامة الصلاة، وقد حمل له كل الأوراق خالصة ومزينة بجميع الأختام المطلوبة، فقد نزل فرج الله وتمت المصلحة، ومن طرق الأبواب ما خاب!!

لم يكن مصيلحي يقبل الحرام أبدًا، لا على نفسه ولا يحب أن يلقيه إلى معدة أولاده، هكذا كان يردد دائمًا بين جلسائه، أما ما يخص هؤلاء الموظفين، فهو شأنهم فقط، وكل نفس بما كسبت رهينة، ورغم أنهم في نظره مرتشون، والحرام لن ينفعهم في دنيا أو آخرة، لكن كل هذا لا يعنيه في أي شيء، فهو مجرد "واسطة خير"، وبدونه لن تتم أي مصلحة، وبدونه كذلك لن تعمل هذه المصلحة، ويؤكد أن كل ما يتقاضاه من زبونه، هو ثمن كوب الشاي فقط، ثم القهوة وزجاجات المياه الغازية والعصائر والبسكويت، حسب الوقت الذي يستغرقه تخليص الطلب، بجانب حساب الورق والقلم والملف الكرتون "أبو نحاسة"، والدمغة التي لم يكن ليجدها المواطن إلا في بوستة وسط البلد، ويحرص عندما يجمع الحساب للزبون في النهاية ألا يتقاضى منه ثمن جلوسه على الكرسي، فهذا هو واجب ضيافته، ثم يأخذ الحساب وهو يتمتم بدعائه المتواتر..

"الحمد لله الذي أطعمنا الطيب الذي رُزِقناه، وجنبنا الخبيث الذي حملناه"

حتى يسمع المؤذن وهو ينادي لصلاة الظهر، فيهرع مع جميع الموظفين للصلاة، ويبدون أكثر حرصًا عليها من أي وقت آخر، فتمتلئ بهم المصلى المخصصة في المصلحة، لكن وحده مصيلحي هو الذي كان يصلي خارج المصلحة، فله مسجده الأثير المواجه للمصلحة، حتى ولو قابل هناك صديقه المشاكس عبدالغني، الذي لم يكن يسلم من لسانه أبدًا، والذي يبدو أحيانا

أطول من ذراعه، تلك الذراع التي تعجزعن فتح دلفتي باب المسجد، لكنه قد خيب ظنه هذه المرة، فقد وجد باب المسجد مفتوحًا للمصلين على مصراعيه.

كان المصلون أكثرعددًا هذه المرة، ربما لأنها صلاة الظهر، لكن الغريب أن أغلبهم كانوا من موظفي المصلحة، لحق مصيلحي له مكانًا في الصف الأخير، ودخل في الصلاة حتى سلم ونظر يمينه ويساره، فوجد حوله الأستاذ "عبدالراضي" والأستاذ "عبدالعاطي"، فمد يده لهما وهو يقول لهما ..

"تقبل الله يا أساتذة"

فرد عليه كلاهما

"منا ومنكم يا مصيلحي"

ثم انصرف ليخرج من المسجد ليقابل"عبدالغني" الواقف على الباب، والذي قال له ..

"الموظفين كتير النهارده يا مصيلحي"

فرد عليه مصيلحي قائلا:

"الظاهر محدش عاد بيصلي في المصلحة"!!

تمت

(١٤)

# الغرباء♣

"لو أني أعرف خاتمتي ما كنت بدأت..."

هكذا ظل صوت عبد الحليم حافظ يردد في كلمات هذه الأغنية، حتى ضج منها أهل المنطقة، وضجوا كذلك من "نصر" الخفير، الذي يحرس إحدى العمارات التي تحت الإنشاء، فهو يعيد ويزيد في تلك الأغنية، وبلا ملل من جهاز "الكاسيت" الكبير المتهالك ذي السماعات الدائرية بنظام "أوتوريفرس"، والذي يفخر به نصر كثيرًا، ويردد دومًا على كل من يتندر عليه وعلى ضخامة كاسيته وضخامة سماعاته، تلك العبارة المكررة والتي ملها الناس منه كذلك ..

"دا كاسيت ياباني أصلي وبتاع بلده"

أحضر نصر معه هذا الكاسيت من السعودية، عندما كان يعمل هناك لمدة خمس سنوات متصلة، لم يستطع فيها أن يأخذ إجازة واحدة توحد ربنا، حتى استغنوا هم عنه وعن خدماته، لكنه أبدًا لم يستغن عن خدمات ذلك الكاسيت، الذي ظل يرافقه ويذكره بأيام العز، والتي ابتلعها الماضي فيما ابتلع منذ أكثر من عشرين عامًا، ولم يبق له منها إلا صوت هذا الكاسيت

---

♣ في سبتمبر ٢٠١٢

بشريطه الأصلي، الذي أخذه مع الكاسيت من البائع هدية، فوق البيعة، ولم يشتر من بعدها أي شريط أصليًا كان أو حتى تقليد !!

ورغم مرور كل تلك السنوات، لكن الشريط الأصلي لم يتلف، مع أنه يديره كل يوم ليسمع نفس الأغنية، حتى ظنه الناس قد اشترى الكاسيت والشريط بداخله، ولم يتعلم حتى الآن كيف يغيره بشريط آخر، ولكن كل هذا لم يكن يهم نصر، ويتعمد أن يطرب ويهيم مع كلمات الأغنية في ملكوت الخيال، رغم أن كلماتها باللغة العربية الفصحى، التي لا يفهم نصر معظمها، لأنه رجل أمي لا يعرف القراءة والكتابة، لكنه كان يردد ويفهم معنى هذه الكلمات جيدًا !!

ونصر الذي لم تترك له التجاعيد والمنحنيات أي نضارة على وجهه، ورسمت عليه كل أفاعيل الزمن وقسوته، منذ أن تولت عنه أيام النعيم بعد أن خسرت معركتها الأخيرة، فترك نفسه أسيرا للطفو فوق أمواج الحياة، لتحمله حيثما شاءت وكيفما أرادت، وهو قانع بنصيبه القليل من على هامشها .

وحتى لو كان أهل المنطقة التي يعمل فيها، ويقيم أيضًا، لا يرون فيه إلا مجرد مصدر إزعاج لهم، بل إن بعضهم كان يعتبر الخلاص منه هو غاية الأماني، حتى يعود الهدوء مرة أخرى للمكان، والذي افتقدوه منذ أن بدأوا في بناء تلك العمارة السكنية الجديدة، وأحضروا نصر ليكون حارسًا للبناء فقط، فقد كلفه مقاولها بحراسة الطوب والزلط والرمل، لكن نصر قد وضع

نفسه تحت تصرف كل أهل المنطقة، يطلبونه فيجدونه تحت الأمر والطلب، ليحمل في أشياء وينظف في محلات ويغسل في سيارات، فقد كان يكفي أي طالب له أن ينادي من بعيد ويقول ..

"يا نصر"
فتنشق الأرض عن نصر، ليقف أمام مناديه وهو يقول له:
"أي خدمة يا باشا"

لم يكن نصر يريد أن يُغضب أحدًا منه، هكذا قد تعلم في بلاد الغربة في السعودية، كان يفعل أي شيء لكي يرضى عنه الناس، طالما أن ذلك سوف يجعله يكسب مالًا حلالًا في النهاية، كانت له في الحياة نظرة عصرتها التجارب، فمثله ممن لم يحصلوا على أي شهادة، إلا شهادة التجنيد بعد ثلاث سنوات من الخدمة بلا ثمن، لم يجدوا شيئًا لكي يتحججوا به ليرتقوا بأنفسهم، ولم يتعلموا كذلك أي حرفة يبحث الناس عنهم من أجلها، فيصبح كل رصيدهم في الحياة هو الكلام، والذي كان نصر يختار للناس أحلاه، ويتجنب حتى مع أقسى الناس أقساه.

مرت سنوات الغربة على نصر كما طيف سريع، حتى اضطروه للعودة بلا أي تعويض، أو حتى شكر، فعاد ثانية لهذا المكان الذي كاد قديمًا أن يموت فيه، لم يكن مسقطًا لرأسه ولا ملعبًا لصباه، لكنه كان يحبه ويتعلق به أكثر من أي مكان، فهو قطعة غالية من أرض الوطن، سالت من أجل

عودتها كثير من الدماء، تذكر رفاق السلاح وليالي الخوف والرجاء التي عاشها تحت طلقات الرصاص ودوي القنابل .

لكن أين من بقي منهم الآن؟! كان قد حمل بعضهم لمثواه الأخير، كما حمل آماله من بعد النصر ليضعها بين أحضان الدولار والريال، بعد أن رجع لقريته بعد الحرب فلم يجد أحلامه التي كانت تسكن فيها، فقد بارت الأراضي وانفض عنها الناس، ورحل العرق الذي كانت تُروى به الأرض السوداء، ليملأ بحورًا لا ترتوي من الرمال التي لا تشبع في الصحراء!!

بدأ الجوع يبحث عن بطنه، التي طالما باتت متخمة، فالجوع أسرع وصولا للبطون من الشبع، ولا تبتلع البطون الطين دون العرق الساكن فيه،أما البيت الذي بناه بالأسمنت والحديد فقد ابتلع الأرض التي كانت تكفيه وتشبعه إلى الأبد، وصار عليه الآن أن يعمل لكي يستطيع الحياة، فحرس العمارات والمشاريع لكن بعيدًا عن بلدته، ينبغي ألا يراه أحد بعد أن تنازل عن بهرج الغربة الزائف، حتى ولو حمل معه الكاسيت والمروحة لكل مشروع كان يتسلم فيه الحراسة، ويحمل معه كذلك عيونه التي تُغمض عند اللزوم، وأذنيه اللتين تسمعان الإساءة وتسكت !!

كانوا صبية صغارًا، أو هكذا كان يراهم وهم يتجمعون ويثرثرون ثم يتندرون عليه، ويضحك لهم وهو يدخن الجوزة، فيتصاعد الدخان في ظلام الليل ليغطي على أدخنة أخرى تتصاعد من الصبية كذلك، لكن خلف العمارة، أدخنة زرقاء تُداري أفعالًا أخرى مشينة، لم يكن نصر يدري عنها

شيئًا، أو ربما كان يدري ولا يهتم، فقد اعتاد على الحياة غريبًا في بلاد غريبة، وقد تعلم جيدًا كيف لا يتدخل فيما لا يعنيه، حتى لا يلقى ما لا يرضيه!!

ضج سكان المنطقة من نصر، ومما يغض الطرف عنه في كل ليلة، فقد تعددت السرقات وحوادث الاعتداء على البنات، وصار حمل المطاوي وإشهار السيوف حدثًا عاديًا، قد وجدها بعض الأهالي في جيوب أبنائهم، بل إن أحد الصبية المجهولين قد وُجد مقتولًا في إحدى الخرابات، فصار الجميع يسبون في نصر وأمثاله، من أولئك الغرباء الذين استوطنوا في المدينة، بعد أن انشغل أهلها في التجارة والربح، وكان نصر كثيرًا ما يقول لنفسه

"لولا دماء زملائي وعرقي أنا ما اغتنى هؤلاء"

لكنه لم يكن ليُعلن ذلك أبدًا، عليه أن يُوقن بأنها أرزاق وقد قسمها الله، ولولا أنهم تركوا الكد والتعب وركنوا إلى الراحة والرزق السريع في التجارة، ما وجد هو وأمثاله رزقًا يطعمون به أولادهم، هكذا كان يقول كذلك في الغربة خارج الوطن، حتى عاد ليجد نفسه غريبًا كذلك في وطنه!!

نادى عليه أحد الأشخاص في الصباح كالعادة، فاندفع نصر ليلبي الطلب، كان المنادي ضابطًا من سكان المنطقة، لم يكن يريد شيئًا منه كما توقع، لكنه قد أنذره بمغادرة المنطقة كلها، ليس هو فقط لكن عليه أن يصطحب معه كذلك كل المجرمين والبلطجية الذين سكنوها على يديه، لم يستطع نصر الرد عليه، ولم يكن يعرف كذلك من هم هؤلاء البلطجية؟!.

كل ما كان يفكر فيه هو ماذا سيفعل بعد أن يُغادر، هل المعرفة هي الثمن الفادح لبقائه؟! بعد أن أضحى التذلل لا يعصم من الرحيل!!، لكن كل ما كان يعرفه أن الحكومة هي التي يجب أن تعرف كل شيء !!

غاب نصر تمامًا عن المكان، وتنفس الجميع الصعداء بغيابه، فحتمًا سوف تغيب الجريمة والبلطجة إلى غير رجعة، وفي خضم الفرحة برحيله والتأسف على فقدان خدماته، ظهرت جثة جديدة، وجدوها ملقاة في إحدى الخرابات، وذهب الضابط ليعاين المكان، كانت الجثة المقتولة لرجل في الستين من العمر، تبدو التجاعيد القاسية واضحة على وجهه، دقق فيها الضابط كثيرًا، فاكتشف أن المقتول هو نصر نفسه، فقُيد الحادث ضد مجهول، فهؤلاء البلطجية ليس لهم في عرف الحكومة ثمن !!

عاد جسد "نصر" إلى قريته القديمة في صندوق، عاد غريبًا كما اعتاد دومًا أن يكون، ليرقد هادئًا مهزومًا تحت التراب، وعاد الضابط لبيته ليرقد مجهدًا، لم يلتفت لزوجته التي أخبرته بأنها قد وجدت مطواة في ملابس ابنهما المراهق، قال لها بأن كل شيء سينتهي برحيل نصر وأمثاله من المجرمين الذين سكنوا تلك المنطقة الراقية الهادئة، فحولوها مرتعًا للجريمة في كل يوم، ثم دخل لينام مرتاحًا تحت البطانية، حتى أيقظه في الصباح صوت كاسيت صيني مقلد، كان الصوت يصرخ عاليًا لأقصى حد، ويتحشرج بأغنية منتشرة في تلك الأيام تقول ..

"أنا شارب سيجارة بني، علشان دماغي بتاكلني"

وينطلق هذه المرة من غرفة نوم ابن حضرة الضابط، فتأفف الضابط لذلك الصباح المزعج، ولعن أولئك الغرباء الذين علموا أولادهم الأبرياء الصغار تلك الأشياء القبيحة، فحمد الله أن الأمر قد توقف عند ذلك الحد، ثم عاود دفن رأسه تحت البطانية !!

تمت

(١٥)

# عندما يصمت كل شيء!!♣

لم أنم بمثل ذلك العمق منذ فترة طويلة، فقد جافاني النوم طويلًا منذ أن طرحتني الآلام على هذا الفراش، عساها ألا تكون مجرد إغماءة ثم أفيق بعدها، أشتاق لبعض الراحة والسكون، تعبأت أذناي بصخب الحياة حتى فاضت، حتى أحاديثهم السرية التي كانوا يختلسونها من حولي كنت أسمعها، يغلفونها بنظراتهم الشامتة الجوفاء، لكني احترفت قراءة ما يتوارى خلف العيون، وليس أقسى على الإنسان في تلك الأثناء إلا أن يزيح عنه الغطاء، فباطن الإنسان كباطن الأرض، تراب هاديء بارد، لكن تكمن تحته نيران تتأجج!!

أصبحت أرى كل شيء حولي، نظراتي الحديدية صارت تخترق الجدران، تتملص من بين الأجساد المحيطة بي، أراهم يتفحصون جسدي الملقى أمامهم بلا حراك، يشيعوني بقليل من الحزن وكثير من الفرح، البعض يراني قد تخلصت نهائيًا من ذلك الألم الذي ظل يتملكني كحجر متعلق في رقبتي، ويشدني بإصرار الواثق تحت أمواج متلاطمة، وكلما نهضت من تحتها لأنادي من أجل شربة ماء، لم يكن يسمعني أحد .

---

♣ في أكتوبر ٢٠١٠

تكاد أذناي أن تُصمَّ من كثرة ما أسمع من كلمات الأسى، تلوكها الألسن كالمعتاد، مع كثير من الدعوات بالرحمة وسرعة الخلاص، تزدردها الألسن فتطحنها الأسنان وتظهر ما بها من حشوات مختلطة ببوادر السعادة، ها قد تخلصنا منه أخيرًا، من بعد طول انتظاروتمنٍ، لكني باقٍ رغم تمنياتكم جميعًا، ما الذي أتي بكم إلى هنا، هل من أحد يحمل كل هؤلاء إلى خارج تلك الغرفة، فقد ضاقت واكتظت بأمانيهم الخبيثة !!

ناديت بأعلى ما أستطيع من صوت، لكن لم يرد على أحد، لم أسمع حتى صوتي الذي اختنق وبدا وكأنه لم يعد يأتمر بأمري، وإذا بالصمت المتأهب يُخيم على المكان، لم أعد أسمع أى شيء حتى من ألسنة المحيطين بي، صاروا مثل حجارة صماء لا تنطق أو تشعر، وإن بدوا وكأنهم يصرخون، أو يدعون الصراخ، لا فرق .

لم يعد يبدو لي العدو عدوًّا، ولا الصديق صديقًا، صار الجميع في عيني سواء، أصبحت أرى الجميع بعيني طائر يحلق من فوق كل الرؤوس، فضاؤه الشاسع صار يتمدد ليحتوي كل العيون، ويثبر كل ما تخفيه البواطن، لكنه لم يعد يهتم بشيء، شيء ما صار يحثني على التخلي عن كل ما أحمله من أثقال، أصابع الحرية تتسلل لتحرر جسدي الذي ظل مقيَّدا في أصفاد الحب والكراهية والمرض والحاجة، لم أعد أهتم إلا بالحرية والتحليق فوق كل الأشياء .

ظللت أحلم مرارًا بتلك اللحظة، ثم أصحو من بعدها فزعًا، وأندم على فقدانها، وأمسح على وجهي وعلى جبهتي المعروقة، ثم أنظر من حولي وأبحث ملهوفًا عن شربة ماء، مجرد شربة قد تزيدني تشبثًا أكثر بالحياة !!

لكني في تلك المرة لم أنتفض، ولم أفزع، تبلدت كل مشاعري، وكأنها قد غُمرت معي في بئر سحيقة من الثلج، فتجمدت رغم أني كنت أريد أن أفيق، حتى عيناي قد تجمدتا في محجريهما، فلم أعد أستطيع التجول في العيون، ولا التقليب فيها لأبحث عن إجابة، فصرت أصرخ فيهم ..

"أفيقوني.. أفيقوني"
إنما لم أعد أسمع حتى صوتي !!

أيقنت أني قد فقدت القدرة تمامًا على الكلام، كما فقدت القدرة على الحركة منذ شهور عديدة، كيف لا أستطيع أن أحرر جسدي هذا الملفوف في تلك اللفافات البيضاء؟!، وكيف أراه هكذا وعيونه مسبلة ولا أستطيع فتحها أو حتى تحريك الجفون !!

هل فقدت القدرة على الفعل ذاته؟!

وكيف أحلق هكذا وبمثل تلك الحرية حول هؤلاء الواقفين الباكين، اقتربت منهم وملت عليهم، تحسستهم بيديَّ، هززتهم بأقصى ما أمتلك من قوة ..

أنا هنا .. أنا معكم

لكن أحدًا لم يعد يشعر بي، ولا بهزاتي تلك القوية، كنت أقوى من أي وقت مضى، لكني لم أعد أؤثر في أحد، فتحسست وجهي ويديَّ، فلم أجد إلا فراغًا، فهرعت إلى جسدي المغطى، وهززته بمنتهى القوة، فلم أجد فيه أي حراك !!

لم أعد أفهم شيئًا، انفجرت في بكاء شديد، تحول البكاء إلى صراخ ..
- "أنقذوني.. أنقذوني"

لكن لا أحد يجيب، فاندفعت نحو أشيائي الثمينة، أبحث عنها، هنا ملابسي المعلقة في الأركان، وهنا أموالي تختفي في الأدراج،وهناك لوحاتي وتحفي التي جمعتها بأغلى الأسعار، وهنا كتبي وصوري وذكرياتي،أراها ترقد مطوية وقد علاها الغبار.

نظرات الطامعين من حولي تطوق كل الأشياء، أكاد أقرأ في عيونهم مفاوضات التقسيم بالعدل أو بالجور، حاولت أن أحمل من أشيائي أي شيء، ما خف حمله ودفعت أنا ثمنه الغالي، أنا الوحيد الذي يدرك قيمتها الحقيقية، قد يشرونها بثمن بخس، لكني لم أستطع، لم تطاوعني الأشياء،كل أشيائي اللعينة التي امتلكتها وظللت أحرسها كنمر شرسٍ لم تعد تطاوعني، حتى جسدي لم يعد يطاوعني !!

إنهم يحملونه الآن على الأكف، أراه لا يقاوم أو يكف أيديهم عنه، وضعوه في صندوق ضيق، كثيرون قد تقهقروا حتى لا يحملوا ذلك الصندوق على الأكتاف، تعلقت أنا بالصندوق، بالأبواب، بالأرض، بالجدران ..

"لا .. لا تذهبوا .. لا تأخذوني من هنا"

لم يكن يسمعني أحد، فقدت القدرة حتى على الوجود، حتى جسدي لم يعد يعد يعرفني، وسار بلا إرادة إلي خارج بيتي، ترك البيت كما ترك كل شيء فيه، فلم أجد بُدًّامن أن أتبعه أنا الآخر، وأترك كل شيء ورائي !!

وصلوا به إلى مكان موحش، يغلفه الصمت المتقطع بطنين الذباب ونعيق الغربان، وأدخلوه في غرفة منخفضة السقف، ضيقة بلا نوافذ، بباب واحد محكم الإغلاق، تكاد جدرانها المائلة أن تسقط على سكانها المتكدسين فيها، مازلت أراهم في الخارج يتبادلون الأحضان والقبلات، حتى جفت دموعهم فتركوا الجسد وحيدًا في الظلام وذهبوا .

وإذ بالغرفة الضيقة تمتليء عن آخرها، كثيرون منهم لم أكن أعرفهم من قبل، إلا هذين القادمين من بعيد، كانا أمي وأبي، فصرخت فيهما ..

- منذ زمن لم تأتياني في المنام، وكأنني لم أعد ابنكم؟!
- انتظرناك أنت لتأتينا، لكنك قد تأخرت
- ولماذا تنتظراني كل هذا الزمن، ألم تقلقا عليَّ ؟!

- لم يعد للزمن لدينا أي قيمة
- أتمنى أن يكون لقائي بكما هو الآخر كحلمٍ كما هي العادة
- لا إنه ليس حلمًا كما تظن
- لكنكما ميتان منذ زمن
- وأنت كذلك يا ولدي .. قد أصبحت منذ الآن ميتًا !!

تمت ..

وتمت جميعًا بحمد الله

# الفهرس


| | |
|---|---|
| قشعريرة | ٧ |
| الصندوق المعدني | ١٥ |
| استدعاء للجنَّة | ٢٣ |
| عيناها عسليتان | ٣٣ |
| ساعة حساب | ٣٩ |
| بلغني أيها الديك السعيد | ٤٧ |
| شاشة زرقاء | ٥٣ |
| لعله الله!! | ٥٩ |
| ألم | ٦٧ |
| شَرْوَة | ٧٣ |
| عشر دقائق | ٨١ |
| طربوش جنابك!! | ٨٧ |
| باب الله | ٩٣ |
| الغرباء | ٩٩ |
| عندما يصمت كل شيء!! | ١٠٧ |